

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية أصول الدين

مطبوعة موجهة لطلبة السنة الثالثة

تخصص الحديث وعلومه

السداسي الخامس

مادة: فقه السيرة النبوية

إعداد: أ. فيلاي بلقاسم

السنة الجامعية: 2013-2014

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين الذي هدانا من ضلالة وعلمنا من جهالة، وخصنا بخير كتاب أنزل، وأفضل رسول أرسل، اللهم صلي وسلم وزد وبارك عبدك ورسولك النبي الأمي الأمين المبعوث رحمة للعالمين ومعلما للأمة، وجعل سنته هادية للناس أجمعين، وسيرته سراجا منيرا، وبعد:

هذه مذكرة في الفقه الحركي للسيرة النبوية، أعدتها للسنة الثالثة كتاب وسنة تخصص حديث وعلومه، وقد قسمت الموضوع إلى محاور، المحول الأول عاجلت فيه حياة النبي-صلى الله عليه وسلم- من الميلاد إلى البعثة، والمحور الثاني عاجلت فيه الفقه الحركي للسيرة المكية كلها، وقسمتها إلى مراحل وفق الخطوات والمنهج الذي تحركت به النبي-صلى الله عليه وسلم- في ميدان الدعوة، وذلك بناء على أحداث هامة كان النبي-صلى الله عليه وسلم- ينهي بها مرحلة من الدعوة لبدأ مرحلة جديدة، فكانت مثلا حادثة الجهر بالدعوة نقلا للدعوة من المرحلة السرية إلى مرحلة جديدة، تغيرت فيها وسائل الدعوة السابقة واستعمل فيها أساليب وطرق جديدة لم تكن معهودة في المرحلة السرية السابقة، كما استمرت في هذه المرحلة أساليب سابقة كالاحتفاظ بسرية الأتباع وعدم الجهر بهم، فتميزت بذلك المرحلة السابقة عن اللاحقة، فسميت المرحلة الأولى مرحلة سرية الدعوة والأتباع من السنة الأولى من البعثة إلى غاية السنة الثالثة، والمرحلة الثانية من أمر الله له بالجهر إلى ما قبل إسلام عمر بن الخطاب، أي من السنة الثالثة إلى السنة السادسة من الدعوة، وبنفس الطريقة تعاملت مع باقي المراحل، فجعلت المرحلة المكية الثالثة من إسلام عمر إلى وفاة عمه أبي طالب من السنة السادسة من البعثة إلى السنة العاشرة، والمرحلة المكية الرابعة من بعد وفاة عمه إلى مقدمات الهجرة، من السنة العاشرة إلى السنة الثالثة عشر من الدعوة، أما السيرة المكية فاعتمدت فيها نفس معايير التقسيم السابقة، فقسمتها إلى أربعة مراحل، المرحلة الأولى من الهجرة النبوية إلى غزوة بدر الكبرى، من السنة الأولى إلى السنة الثانية من الهجرة، أما المرحلة الثانية فجعلتها من بعد غزوة بدر إلى صلح الحديبية، من السنة الثانية إلى السنة السادسة من الهجرة، أما المرحلة الثالثة فجعلتها من ما بعد صلح الحديبية إلى فتح مكة، من السنة السادسة إلى السنة الثامنة من الهجرة، أما المرحلة الرابعة فجعلتها من ما بعد فتح مكة إلى وفاة النبي-صلى الله عليه وسلم-.

أما المصادر والمراجع التي اعتمدها، فإني قدمت كل ما جاء في رواية صحيح البخاري عن غيره، ثم سائر ما ورد في كتب السنة الأخرى، وما ورد في القرآن الكريم وتفسيره من بعض الآيات المتعلقة بأحداث السيرة النبوية الكبرى، ثم شروح كتب الحديث وعلى رأسها فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ثم سائر الشروح، ثم ما ورد في كتب السيرة النبوية الأصلية، وبعض المراجع الحديثة في الفقه الحركي للسيرة النبوية.

خصائص ومميزات المرحلة المكية الأولى [سرية الدعوة والأتباع 1-3 من البعثة]

أولاً: تهيئة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لتلقي الوحي وأول ما نزل عليه

أ/ التمهيد لتلقي الوحي [الرؤيا الصادقة]: روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح¹، قال ابن حجر: قوله: (من الوحي) أي من أقسام الوحي، والرؤيا الصالحة وقع في رواية معمر ويونس عند المصنف في التفسير (الصادقة) وهي التي ليس فيها ضغث، وبدئ بذلك ليكون تمهيدا وتوطئة لليقظة، ثم مهد له في اليقظة أيضا رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر، وقوله: (مثل فلق الصبح) أي مشبهة ضياء الصبح، أي جاءت مجيئا مثل فلق الصبح، والمراد بفلق الصبح ضياؤه، وخص بالتشبيه لظهوره الواضح الذي لا شك فيه².

وقد استغرقت الرؤيا الصادقة مدة نصف سنة، قال ابن حجر: وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان³، فكانت مرحلة الرؤيا تمهيدا لنزول الوحي⁴.

ب/ تحنثه في الغار: روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى حديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحوق وهو في غار حراء⁵.

قال ابن حجر: نبه على أنه لم يكن من باعث البشر، أو يكون ذلك من وحي الإلهام، والخلاء بالمد الخلوة، والسر فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له، وحراء هو جبل معروف بمكة، والغار نقب في الجبل، فيتحنث بمعنى يتحنف، أي يتبع الحنفية وهي دين إبراهيم، الليالي ذوات العدد وقد عرفت مدتها وهي شهر، وذلك الشهر كان رمضان كما رواه ابن إسحاق⁶.

¹ - صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 03

² - فتح الباري، ج1، ص31

³ - المصدر نفسه، نفس الجزء، ص37

⁴ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص125

⁵ - صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 03

⁶ - فتح الباري، ج1، ص31-32

ج/أول ما نزل عليه في الغار: روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا التاموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوخرجني هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينسب ورقة أن ثوبى وفتر الوحي¹.

قال ابن حجر: وفي التفسير: حتى فجئه الحق أي بغته، وإن ثبت من مرسل عبيد بن عمير أنه أوحى إليه بذلك في المنام أولا قبل اليقظة، أمكن أن يكون مجيء الملك في اليقظة عقب ما تقدم في المنام، وسمي حقا لأنه وحي من الله تعالى، ثم استعلن له جبريل من قبل حراء، فذكر قصة إقراءه (اقرأ باسم ربك) ورأى حينئذ جبريل له جناحان من ياقوت يختطفان البصر، وقد ثبت في صحيح مسلم من وجه آخر عن عائشة مرفوعا (لم أره - يعني جبريل - على صورته التي خلق عليها إلا مرتين)، وبين أحمد في حديث ابن مسعود أن الأولى كانت عند سؤاله إياه أن يريه صورته التي خلق عليها، والثانية عند المعراج، وللترمذي من طريق مسروق عن عائشة "لم ير محمد جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدره المنتهى، ومرة في أجساد"، وقال له (اقرأ باسم ربك) أي لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانتة، فهو يعلمك كما خلقك، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية، فرجع بالآيات أو بالقصة، فقال زملوني أي لفوه، فقالت خديجة كلا ثم استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدا بأمر استقرائي وصفته بأصول مكارم الأخلاق، فقالت إنك تكسب المعدوم أي الفقير، ومعناها تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك، وكان النبي صلى الله

¹ - صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 03

عليه وسلم قبل البعثة محظوظا في التجارة، فانطلقت به إلى ابن عم خديجة ورقة بن نوفل، تنصر وصار نصرانيا، وكان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألون عن الدين، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر، وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى ولم يبدل، ولهذا أخبر بشأن النبي صلى الله عليه وسلم والبشارة به، إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل، وكان ورقة يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية وفي رواية مسلم: فكان يكتب الكتاب العربي، والجميع صحيح، لأن ورقة تعلم اللسان العبراني والكتابة العبرانية فكان يكتب الكتاب العبراني كما كان يكتب الكتاب العربي، لتمكنه من الكتابين واللسانين، وإنما وصفته بكتابة الإنجيل دون حفظه لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن متيسرا كتييسر حفظ القرآن الذي خصت به هذه الأمة، وقالت في حق النبي صلى الله عليه وسلم: اسمع من ابن أخيك، لأن والده عبد الله بن عبد المطلب وورقة في عدد النسب إلى قصي بن كلاب الذي يجتمعان فيه سواء، فكان من هذه الحيشية في درجة إخوته، أو قالته على سبيل التوقير لسنه، فقال ورقة هذا الناموس الذي نزل الله على موسى أشار إلى الملك الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في خبره، والناموس: صاحب السر، والمراد بالناموس هنا جبريل عليه السلام، ثم قال يا ليتني فيها جذع حين يخرجك قومك، والجذع: هو الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شابا ليكون أمكن لنصره، وبهذا يتبين سر وصفه بكونه كان كبيرا أعمى، والمراد من هذا التنبيه على صحة ما أخبره به، والتنويه بقوة تصديقه فيما يجيء به، فقال له أو مخرجي هم، واستبعد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرجوه، لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج، لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق التي تقدم من خديجة وصفها، وقد استدل ابن الدغنة بمثل تلك الأوصاف على أن أبا بكر لا يخرج، فذكر ورقة أن العلة في ذلك جميعه لهم بالانتقال عن مألوفهم، ولأنه علم من الكتب أنهم لا يجيبونه إلى ذلك، وأنه يلزمه لذلك منابذتهم ومعاندتهم فتنشأ العداوة من ثم، ثم لم ينشب أن فتر الوحي، وفتوره تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العود، وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وبه جزم ابن إسحاق، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان، وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين وهي ما بين نزول "اقرأ" و"يا أيها المدثر" عدم مجيء جبريل إليه، بل تأخر نزول القرآن فقط¹.

د/طرق الوحي إليه-صلى الله عليه وسلم-: سئل النبي-صلى الله عليه وسلم- عن كيفية مجيء الوحي إليه، فروى البخاري الجواب عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحيانا يأتيني مثل صلصلة

¹-ابن حجر العسقلاني:فتح الباري، ج1، ص32-36

الْجُرْسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيُفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيُفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا¹.

قال ابن حجر: كيف يأتيك الوحي يحتمل أن يكون المسئول عنه صفة الوحي نفسه، ويحتمل أن يكون صفة حامله أو ما هو أعم من ذلك، وعلى كل تقدير فإسناد الإتيان إلى الوحي مجاز، لأن الإتيان حقيقة من وصف حامله، فيه إشارة إلى انحصار صفة الوحي أو صفة حامله في الأمرين، فإن الملك قد تمثل رجلا في صور كثيرة ولم ينفلت منه ما أتاه به كما في قصة مجيئه في صورة دحية وفي صورة أعرابي وغير ذلك وكلها في الصحيح، وأورد على ما اقتضاه الحديث حالات أخرى: إما من صفة الوحي كمجيئه كدوي النحل، والنفث في الروع، والإلهام، والرؤيا الصالحة، والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة، وإما من صفة حامل الوحي كمجيئه في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح، ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض وقد سد الأفق، والجواب منع الحصر في الحالتين المقدم ذكرهما وحملهما على الغالب، أو حمل ما يغيرهما على أنه وقع بعد السؤال، أو لم يتعرض لصفتي الملك المذكورتين لندورهما، وأما فنون الوحي فدوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس، لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين - كما في حديث عمر - يسمع عنده كدوي النحل، والصلصلة بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فشبهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبهه هو صلى الله عليه وسلم بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه، وأما النفث في الروع فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين، فإذا أتاه الملك في مثل صلصلة الجرس نفث حينئذ في روعه، وأما الإلهام فلم يقع السؤال عنه، لأن السؤال وقع عن صفة الوحي الذي يأتي بحامل، وكذا التكليم ليلة الإسراء، وأما الرؤية الصالحة فقال ابن بطال: لا ترد، لأن السؤال وقع عما ينفرد به عن الناس، لأن الرؤيا قد يشركه فيها غيره، والرؤيا الصادقة وإن كانت جزءا من النبوة فهي باعتبار صدقها لا غير، وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبيا وليس كذلك، ويحتمل أن يكون السؤال وقع عما في اليقظة، أو لكون حال المنام لا يخفى على السائل فاقصر على ما يخفى عليه، وقد ذكر الحلبي أن الوحي كان يأتيه على ستة وأربعين نوعا² - فذكرها - وغالبها من صفات حامل الوحي، ومجموعها يدخل فيما ذكر، والصلصلة المذكورة صوت الملك بالوحي، وهو أشده عليه، ويفهم منه أن الوحي كله شديد، ولكن هذه الصفة أشدها، وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفي، والدرجات³.

وحديث بدأ الوحي هذا، هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته، واليقين به هو المدخل الذي لا بد منه إلى اليقين بسائر ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، من إخبارات غيبية وأوامر تشريعية، ومن

¹ - صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 02

² - وذكر البعض ثمانية طرق، سعيد حوى: الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية، دار السلام القاهرة، ط1، 1409هـ/1989م، المجلد الأول، القسم الأول،

أجل هذا يهتم محترفوا التشكيك بالإسلام بمعالجة موضوع الوحي في حياته، ويبدلون جهدا فكريا شاقا في تكلف من اجل التلبيس في حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام وحديث النفس وحتى الصرع أيضا، لعلمهم بأن موضوع الوحي هو منبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد-صلى الله عليه وسلم- من عند الله، فإن أتيح تشكيكهم بحقيقته، أمكن تكفيرهم بكل ما قد يتفرع عنه¹.

ه/تنبه في الأربعين من عمره: روى البخاري: عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَصِفُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَ رَبْعَةً مِنْ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ أَزْهَرَ اللَّوْنِ لَيْسَ بِأَبْيَضَ أَمْهَقَ وَلَا آدَمَ لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطٍ وَلَا سَبْطٍ رَجُلٍ أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ وَقُبُضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَخَلْقَتِهِ عَشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ قَالَ رَبِيعَةُ فَرَأَيْتُ شَعْرًا مِنْ شَعْرِهِ فَإِذَا هُوَ أَحْمَرٌ فَسَأَلْتُ فَقِيلَ أَحْمَرٌ مِنَ الطَّيِّبِ²، قال ابن حجر: وهذا إنما يتم على القول بأنه بعث في الشهر الذي ولد فيه، والمشهور عند الجمهور أنه ولد في شهر ربيع الأول وأنه بعث في شهر رمضان، فعلى هذا يكون له حين بعث أربعون سنة ونصف أو تسع وثلاثون ونصف، فمن قال أربعين ألغى الكسر أو جبر، وقال المسعودي وابن عبد البر: إنه بعث في شهر ربيع الأول، فعلى هذا يكون له أربعون سنة سواء، وقال بعضهم: بعث وله أربعون سنة وعشرة أيام، وعند الجعابي أربعون سنة وعشرون يوما، فإن كان محفوظا وضم إلى المشهور أن المبعث في رمضان فيصح أنه بعث عند إكمال الأربعين أيضا، فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه، مقتضى هذا أنه عاش ستين سنة، وأخرج مسلم من وجه آخر عن أنس (أنه صلى الله عليه وسلم عاش ثلاثا وستين) وهو موافق لحديث عائشة وبه قال الجمهور، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان³.

و/فترة الوحي: قال البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر إلى قوله والرجز فاهجر فحمي الوحي وتتابع⁴.

¹- سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، ص63

²- صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: صفة النبي، رقم: 3283

³- فتح الباري، ج1، ص37

⁴- صحيح البخاري: كتاب: بدأ الوحي، باب: بدأ الوحي، رقم: 03

قال ابن حجر: دل قوله عن فترة الوحي وقوله الملك الذي جاءني بحراء على تأخر نزول سورة المدثر عن اقرأ، فقلت زملوني زملوني، وفي رواية يونس في التفسير فقلت دثروني فنزلت (يا أيها المدثر قم فأندر)¹.

وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العود، وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وبه جزم ابن إسحاق، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان، وفترة الوحي مقدرة بثلاث سنين وهي ما بين نزول "اقرأ" و "يا أيها المدثر"، ومجيء جبريل إليه في تلك المدة، والمقصود تأخر نزول القرآن فقط²، وقد سبب ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- حرج كبير، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم... وفترة الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكنك لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك³.

استمرت فترة ابتداء الوحي تلك المدة الطويلة، ريثما يطمئن محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى أنه نبي مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو وحي من الله عز وجل، فيؤمن هو بنفسه أولاً، ويوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادئ ونظم وأحكام⁴.

ومدة انقطاع الوحي لم تدم طويلاً، حيث اطمأنت نفسه وتهاياً لاستقبال الوحي فتتابع وكثر⁵، واستغرق

نزول الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، ثلاثة عشر سنة بمكة، وعشر سنين بالمدينة⁶.

¹ - فتح الباري، ج1، ص37-38

² - فتح الباري، ج1، ص37

³ - صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب: أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة، رقم: 6467

⁴ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص74

⁵ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص127

⁶ - المصدر نفسه، ص129

ثانيا/سرية الدعوة والأتباع في هذه المرحلة

أ/التدرج والمرحلية في الدعوة: تحرك بالنبي-صلى الله عليه وسلم-، بالدعوة وفق خطوات ممنهجة منذ بعثته، فكانت حركته ذات مراحل، وكل مرحلة لها وسائلها المكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، وفق مرحلة متتالية بغية الوصول إلى الهدف النهائي، فجاءت المرحلة السرية في بداية الدعوة، واعتمد البحث عن الجماعة التي تحمل مشروع الدعوة أولا، وفق خطوات عملية لتحقيق هذا الهدف المرهلي، فأحكم الهدف أولا، ثم الخطة ثانيا، ومعرفة موقف العدو ثالثا، والتحرك رابعا¹.

ب/مدة سرية الدعوة: استغرقت مدة السرية في الدعوة والأتباع ثلاث سنوات²، حتى جاءه الأمر بالجهر بها³

ج/كيفية السرية

1/السرية في وسائل الدعوة وطرقها: بدأت الدعوة سرية وفردية⁴ من بداية البعثة حين نزلت عليه في الغار [أقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم]⁵ إلى نزول قوله تعالى [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ]⁶، وقام النبي -صلى الله عليه وسلم- بالدعوة بنفسه، أو بمن استجاب له كأبي بكر الصديق⁷، وتميزت بالسرية في كل شيء، في وسائل الدعوة والأتباع، واعتمدت على الاتصال والإقناع الشخصي لبعض الأفراد⁸، ولم تكن الدعوة موجهة لكل الناس، بل اعتمدوا على دعوة أشخاص محددين ذوي قابلية واستعداد للاستجابة وقبول الدعوة، من أي طبقة كانت، من الأحرار والعييد والرجال والنساء والشباب والشيوخ والفتيان، فالدعوة غير معلنة إلا لمن يُرجى انضمامه إليها، والمحافظة التامة على السرية التامة⁹، ما دامت الدعوة غريبة على معتقدات الجاهلية، حتى يؤمن بها عدد يضحون في سبيلها وتضمن استمرارها¹⁰.

¹- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، دار الوفاء القاهرة، ط5، 1427هـ/2006م، ص5، 11، 65، 112

²- سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص68

³- سعيد حوى: الأساس في السنة، ص215

⁴- المصدر نفسه، ص214

⁵- سورة اقرأ، الآية1-3

⁶- سورة الشعراء، الآية214

⁷- سعيد حوى: الأساس في السنة، ص215

⁸- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص17

⁹- المصدر نفسه، ص19، 25

¹⁰- مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص28

2/ سرية الأتباع: وأسلم من أسلم في هذه المرحلة من الأتباع سرا، روى البخاري عن عامر بن سعد عن أبيه قال لقد رأيتني وأنا ثلث الإسلام¹، قال ابن حجر: قال ذلك بحسب اطلاعه، والسبب فيه أن من كان أسلم في ابتداء الأمر كان يخفي إسلامه، ولم يكن اطلع على أولئك، ويحمل ذلك على مقتضى ما كان اتصل بعلمه حينئذ².

ج/ تورية النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الأتباع: روى مسلم عن أبي أمامة قال قال عمرو بن عبسة السلمي كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يجزر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً جزءاً عليه فؤمه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له ما أنت قال أنا نبي فقلت وما نبي قال أرسلني الله فقلت وبأي شيء أرسلك قال أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء قلت له فمن معك على هذا قال حر وعبد³...، فلم يخبره النبي - صلى الله عليه وسلم -، باسم أي شخص ممن أسلم معه، ولا حتى بعدد المسلمين، بل استخدم معه أسلوب التورية، وكفى عن الأحرار بحر وعن العبيد بعبد، ولم يعلمه باسم أحد منهم ولا بعددهم.

ه/ أول الناس إسلاماً: أثمر الجهد في هذه المرحلة عن إسلام خديجة بنت خويلد وأبوبكر الصديق وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة، كما ساهم أبوبكر بجهد في هذه المرحلة فأسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بين عبيد الله⁴.

روى البخاري عن همام بن الحارث قال قال عمارة بن ياسر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر⁵، قال ابن حجر: وما معه ممن أسلم، إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر، أما الأعبد فهم بلال وزيد بن حارثة وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، فإنه أسلم قديماً مع أبي بكر، وروى الطبراني من طريق عروة أنه كان ممن كان يعذب في الله فاشتراه أبو بكر وأعتقه، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية بن خلف ذكر ابن إسحاق أنه أسلم حين أسلم بلال فعذبه أمية فاشتراه أبو بكر فأعتقه، وأما الخامس فيحتمل أن يفسر بشقران، فقد ذكر ابن السكن في "كتاب الصحابة" عن عبد الله بن داود أن النبي صلى الله عليه وسلم ورثه من أبيه هو وأم أيمن، وذكر البعض بدل أبي فكيهة عمار بن ياسر وهو محتمل، وكان ينبغي أن يكون منهم أبوه فإن الثلاثة كانوا ممن يعذب في الله وأمه أول من استشهدت في الإسلام طعنها أبو جهل في قلبها بجرية فماتت، وأما المرأتان فخديجة والأخرى أم أيمن أو سمية، وفي هذا

¹- صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مناقب سعد بن أبي وقاص الزهري، رقم: 3447

²- فتح الباري، ج7، ص105

³- صحيح مسلم: كتاب: صلاة المسافر وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم: 1373

⁴- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص18-19

⁵- صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: قول النبي لو كنت متخذاً خليلاً، رقم: 3387

الحديث أن أبا بكر أول من أسلم من الأحرار مطلقا، ولكن مراد عمار بذلك ممن أظهر إسلامه، وإلا فقد كان حينئذ جماعة ممن أسلم لكنهم كانوا يخفونه من أقاربهم¹.

وروى مسلم عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد بن زبدي نزلت ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدا والعشي قال نزلت في ستة أنا وابن مسعود منهم وكان المشركون قالوا له تدين هؤلاء².

وانتشر الإسلام بن أفراد قلائل من بطون وفروع شتى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع، أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبوبكر الصديق من تيم، وعثمان بن عفان من بني أمية، والزبير بن العوام من بني أسد ومصعب بن عمير من بني عبد الدار، وعلي بن أبي طالب من بني هاشم، وعثمان بن مضعون من بني جمح، ومنهم من لم يكونوا قرشيين كعمار بن ياسر وزيد بن حارثة وعبد الله بن مسعود، فكان واضحا من أول وهلة، أن الإسلام ليس خاصا بمكة وقريش³، والمستجيبون الأوائل لدعوة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، من أصحاب مكارم الأخلاق والمضطهدين من النساء⁴، فكان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، يدعو إلى الإسلام كل من وثق بعقله، حتى أسلم عدد من الرجال والنساء ممن عرفوا برجحان الرأي وسلامة النفس⁵.

ألم الله تعالى رسوله-صلى الله عليه وسلم-، أن يبدأ الدعوة بسرية وتكتم، وان لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيؤمن بها، تعليما للدعاة من بعده وإرشادا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيلة والحذر والأسباب الظاهرة، على أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهبا يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره، لأن هذا يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام، فكان أسلوبه في الدعوة في هذه الفترة من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماما، ولذلك يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر، أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة، من حيث التكتم والجهر، أو اللين والقوة، حسبما يقتضيه الظرف، وحال العصر الذي يعيشون فيه⁶.

ثالثا: محتوى الدعوى ووسائلها في هذه المرحلة

أ/محتوى ما كان يدعو الناس إليه: روى مسلم عن أبي أمامة قال قال عمرو بن عبسة السلمي كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا ففعدت على

¹ - فتح الباري، ج7، ص29

² - صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضائل سعد بن أبي وقاص، رقم: 4433

³ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص132-133

⁴ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص246

⁵ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص27

⁶ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص69

رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْفِيًا جُرْءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ أَنَا نَبِيٌّ فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ أُرْسَلَنِي اللَّهُ فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ قَالَ أُرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوحَدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ قُلْتُ لَهُ فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا قَالَ حُرٌّ وَعَبْدٌ قَالَ وَمَعَهُ يَوْمِنِذِ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ يَمْنُ أَمَرَ بِهِ فَقُلْتُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ قَالَ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعَتْ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي¹...، قال النووي معناه: قلت له: إني متبعك على إظهار الإسلام هنا، وإقامتي معك فقال: لا تستطيع ذلك لضعف شوكة المسلمين ونخاف عليك من أذى كفار قريش، ولكن قد حصل أجرك فابق على إسلامك، وارجع إلى قومك واستمر على الإسلام في موضعك حتى تعلمني ظهرت فأتني².

ب/القرآن الكريم: روى البخاري عن أبي هريرة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة³، قال ابن حجر: هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره من أصر على المعاندة، والمعنى أن كل نبي أعطى آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها، أي يؤمن بذلك مغلوبا عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه، لكن قد يحدد فيعاند، والمراد بالآيات المعجزات، (وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي) أي إن معجزتي التي تحديت بها الوحي الذي أنزل علي وهو القرآن، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره، لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشيا عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه، ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك، وقيل المراد أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وقيل المعنى أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كمنافاة صالح وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقض

¹ - صحيح مسلم: كتاب: صلاة المسافر وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم: 1373

² - النووي أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط2، 1392هـ، [ج6/ 116]

³ - صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم: 4598

بانقراض مشاهدته، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا، وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء: أحدها حسن تأليفه والتثام كلمه مع الإيجاز والبلاغة، ثانيها صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظما ونثرا، حتى حارت فيه عقولهم ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك، وتقريعه لهم على العجز عنه، ثالثها ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب، رابعها الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي وبعضها بعده، ومن غير هذه الأربعة آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا أنهم لا يفعلونها فعجزوا عنها مع توفر دواعيهم على تكذيبه، كتمني اليهود الموت، ومنها الروعة التي تحصل لسامعه، ومنها أن قارئه لا يمل من ترداد وسامعه لا يمجح ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة، ومنها أنه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، ومنها جمعه لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها ولا تنتهي فوائدها¹.

والقرآن به بدأ النبي-صلى الله عليه وسلم- دعوته، وبه ربي من استجاب له وبه علمهم وبه واجه وجابه².

ج/الصلاة: وقد فرضت الصلاة في البداية ركعتين في الصباح وركعتين في المساء، مع قيام الليل³، وكان النبي-صلى

الله عليه ويسلم- يعلم أصحابه الصلاة ويحثهم عليها، وكان إذا حضر وقتها خرج إلى شعاب مكة بمن معه مستخفيا، فيصلي فيها الصلوات⁴.

د/وسائل التربية والتكوين في هذه المرحلة: كلف منذ البداية بالإندار والصلاة والطهارة والتوحيد والصبر وتجنب الأوثان، هذه هي التكاليف التي جاءت في هذه المرحلة⁵، قال ابن كثير: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النصب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم⁶.

1/بناء العقيدة الصحيحة والسليمة: عمد النبي-صلى الله عليه وسلم- في هذه المرحلة إلى بناء العقيدة السليمة في نفوس أتباعه، بشكل هادئ، لأنها هي التي تضمن الثبات على الحق وتحمل التضحيات في سبيله عند الطلب، فطبقة

¹ ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر الشافعي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة-بيروت، 1379هـ، [ج 9/ 7]

² سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 212

³ سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 214

⁴ منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 23

⁵ سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 214

⁶ تفسير ابن كثير: الآية 77 من سورة النساء، ج 2، ص 211

العشرة المبشرون بالجنة هي التي كونت جيل القيادة للمجتمع الراشد، وهذه النواة هي التي حملت فيما بعد عبء الدعوة للإسلام وتحملت عبء المواجهة الكبرى مع أعداء الدين والدعوة¹.

2/ سائر العبادات وتتخصص العبادات في الصلاة وقيام الليل وقراءة القرآن والذكر والفكر²

د/ التمايز: وتمثل في مقاطعة عبادات الوثنيين وذبائهم ونصبهم وأصنامهم وتنظيماتهم³.

هـ/ **موقف قريش من الدعوة في هذه المرحلة:** كانت قريش في مكة لا تهتم بالأمر، طالما أن المسلمين لا يتعرضون لعقائدهم وأصنامهم، فلم تعري أي اهتمام بمؤلاء، الذين اعتزلوا عبادة الأصنام، قبل أن يعلنوا موقفهم منها، وطالما أنهم منكفئون على دوائهم مكتفون بأنفسهم لا يتدخلون في شؤون الحياة، فلم يقع أي صدام في هذه المرحلة بينهم وبين المسلمين، لأن الدعوة لم تكن معلنة أصلاً، ولا يتدخل المسلمون في شؤون غيرهم بنقد أو مواجهة أو مخالفة ظاهرة، وهذا من نتائج المحافظة التامة على السرية في الدعوة والأتباع⁴.

خصائص ومميزات المرحلة المكية الثانية [من الجهر بالدعوة إلى صلح الحديبية 3-6 من البعثة]

أولاً: الجهر بالدعوة وسرية الأتباع

¹- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 25-26

²- سعيد حوى: المصدر السابق، ص 214

³- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 27

⁴- المصدر نفسه، ص 24-25

أ/الجهر بالدعوة: بدأت هذه المرحلة بنزول قوله تعالى [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ]¹، نزلت لنتهي مرحلة السرية² من الدعوة وبداية مرحلة جديدة، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين صدع النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي يا بني فهدر يا بني عدي ليطون فريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وفريش فقال أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ما جرتنا عليك إلا صدقاً قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعنا فنزلت تبث يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب³.

وعند الواقدي أنه قصر الدعوة على بني هاشم والمطلب وهم يومئذ خمسة وأربعون رجلاً وفي حديث علي عند بن إسحاق والطبري والبيهقي في الدلائل أنهم كانوا حينئذ أربعون يزيدون رجلاً أو ينقصون، وفيه عمومته أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، ولابن أبي حاتم من وجه آخر عنه إنهم يومئذ أربعون غير رجل أو أربعون ورجل، وفي حديث علي من الزيادة أنه صنع لهم شاة على ثريد وقعب لبن وأن الجميع أكلوا من ذلك وشربوا وفضلت فضلة وقد كان الواحد منهم يأتي على جميع ذلك، أراد بذلك تقريرهم بأنهم يعلمون صدقه إذا أخبر عن الأمر الغائب، ووقع في حديث علي ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، ووقع في حديث قبيصة بن محارب وزهير بن عمرو عند مسلم وأحمد فجعل ينادي إنما أنا نذير وإنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فجعل يهتف يا صباحاه يعني يندر قومه، فنزلت تبث يدا أبي لهب وتب، وفي حديث أبي هريرة اشتروا أنفسكم من الله أي باعتبار تخليصها من النار كأنه قال أسلموا تسلموا من العذاب فكان ذلك كالشراء كأنهم جعلوا الطاعة ثمن النجاة⁴.

ومنها تتبين مسؤولية المسلم عن أهله ومن يلوذون به من ذوي قرياه، والقيام بحق هذه المسؤولية، فخصص الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ، بعد أمر بعموم التبليغ والجهر به، وهذه الدرجة من المسؤولية يشترك في ضرورة تحمل أعبائها كل مسلم صاحب أسرة أو قري، وليس هناك اختلاف بين دعوة الرسول في قومه ودعوة المسلم في أسرته بين أقاربه⁵.

ب/الاجتماع السري بالأتباع في دار الأرقم بن أبي الأرقم: مما يدل على أن المسلمين كانوا متكتمين في أمر إسلامهم، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر أبا ذر بكتن إسلامه لكنه أصر على إظهاره فلم يمنعه من ذلك، روى قصة إسلامه البخاري عن أبي جهمرة قال قال لنا ابن عباس ألا أخبرتكم بإسلام أبي ذر قال قلنا بلى قال قال أبو ذر كُنْتُ رَجُلًا

¹-سورة الشعراء، الآية 214

²-أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص141

³-صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين واحفض جناحك أن جانبك، رقم: 4397

⁴-ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر الشافعي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة-بيروت، 1379هـ، [ج503/8]

⁵-سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص74

مِنْ غِفَارٍ فَبَلَعْنَا أَنَّ رَجُلًا قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقُلْتُ لِأَخِي انْطَلِقْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ كَلِّمُهُ وَأْتِنِي بِخَبْرِهِ فَاَنْطَلَقَ فَلَقِيَهُ
ثُمَّ رَجَعَ فَقُلْتُ مَا عِنْدَكَ فَقَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَأْتُرُ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِّ فَقُلْتُ لَهُ لَمْ تَشْفِنِي مِنَ الْخَيْرِ فَأَخَذْتُ
جِرَابًا وَعَصَا ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى مَكَّةَ فَجَعَلْتُ لَا أَعْرِفُهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ وَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْرَمَ وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ فَمَرَّ
بِي عَلِيٌّ فَقَالَ كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَاَنْطَلِقْ إِلَى الْمَنْزِلِ قَالَ فَاَنْطَلَقْتُ مَعَهُ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلَا أُخْبِرُهُ
فَلَمَّا أَصْبَحْتُ عَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِأَسْأَلَ عَنْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ قَالَ فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ
يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدُ قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ انْطَلِقْ مَعِي قَالَ فَقَالَ مَا أَمْرُكَ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ قَالَ قُلْتُ لَهُ إِنْ كَتَمْتَ عَلَيَّ
أَخْبَرْتُكَ قَالَ فَإِنِّي أَفْعَلُ قَالَ قُلْتُ لَهُ بَلَعْنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي
مِنَ الْخَيْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ فَقَالَ لَهُ أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشِدْتَ هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي ادْخُلْ حَيْثُ أَدْخُلُ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا
أَخَافُهُ عَلَيْكَ فُتْمْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نَعْلِي وَامْضِ أَنْتَ فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلْتُ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ اعْرِضْ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ فَعَرَضَهُ فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي فَقَالَ لِي يَا أَبَا ذَرٍّ أَكْتُمْتَ هَذَا الْأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى
بَلَدِكَ فَإِذَا بَلَعَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ فَقُلْتُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِأَصْرَحَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ فَقَالَ
يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَقَالُوا فُؤُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِيِّ فَقَامُوا فَضُرِبَتْ
لِأُمُوتٍ فَأَذْرَكْنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ وَيْلَكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ وَمَشْحَرَكُمْ وَمَمْرُكُم عَلَى غِفَارٍ
فَأَقْلَعُوا عَنِّي فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْعَدَا رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالْأَمْسِ فَقَالُوا فُؤُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِيِّ فَصَبَّحَ بِي مِثْلَ مَا
صَبَّحَ بِالْأَمْسِ وَأَذْرَكْنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالْأَمْسِ قَالَ فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ
إِسْلَامُهُ فِي الْمَرْحَلَةِ الَّتِي أَظْهَرَتْ فِيهَا قُرَيْشٌ جَرَأَتِهَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَذْهَبَا لِلْمُسْلِمِينَ¹، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ إِسْلَامَهُ جَاءَ فِي
مَرْحَلَةِ الْجَهْرِ بِالْدَعْوَةِ وَسْرِيَةِ الْأَتْبَاعِ وَلِذَلِكَ أَمْرُهُ بِإِخْفَاءِ إِسْلَامِهِ، كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ بِخَبْرِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَكُونُ
بَعْدَ جَهْرِهِ بِالْدَعْوَةِ وَلَيْسَ فِي الْمَرْحَلَةِ السَّابِقَةِ، وَفِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَعْلَنَ أَمْرَ الدِّينِ وَانْتَهَى أَمْرَ إِخْفَاءِهِ²، وَبَقِيَ إِخْفَاءُ إِسْلَامِ
مَنْ لَمْ يَعْلَمْ بِإِسْلَامِهِ.

كما دل على السرية التامة في إخفاء المسلمين بعضهم لبعض، فإن علي رضي الله عنه أمر أبا ذر باتباعه ومراقبته
من بعيد إلى غاية المكان السري الذي يختفي فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- بأتباعه، وأشار عليه بالتمويه في حالة
اكتشاف أمره³.

¹- أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص140

²- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص26

³- أكرم ضياء العمري: المصدر السابق، ص144

كما دل حديث عمرو بن عبسة السلمي على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان لا يخبر أحداً ممن أسلم حديثاً من أسلم قبله، روى مسلم عن أبي أمامة قال قال عمرو بن عبسة السلمي كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ فَسَمِعْتُ بَرَجِلَ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْفِيًا جُرْءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ أَنَا نَبِيٌّ فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ أَرْسَلَنِي اللَّهُ فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ قَالَ أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحِّدَ اللَّهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْءٌ قُلْتُ لَهُ فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا قَالَ حُرٌّ وَعَبْدٌ قَالَ وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ فَقُلْتُ إِيَّيْ مُتَّبِعُكَ قَالَ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي¹...، قال النووي: معناه: قلت له: إني متبعك على إظهار الإسلام هنا، وإقامتي معك فقال: لا تستطيع ذلك لضعف شوكة المسلمين ونخاف عليك من أذى كفار قريش، ولكن قد حصل أجرك فابق على إسلامك، وارجع إلى قومك واستمر على الإسلام في موضعك حتى تعلمني ظهرت فأتني²، فلم يخبره النبي -صلى الله عليه وسلم-، باسم أي شخص ممن أسلم معه، ولا حتى بعدد المسلمين، بل استخدم معه أسلوب التورية، وكفى عن الأحرار بحر وعن العبيد بعبء، ولم يعلمه باسم أحد منهم.

فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخفف من عدد الأتباع ولا يكدهم في مكان واحد، فيأمر من له مأوى يأوي إليه بالعودة بعد إسلامه إلى قبيلته، كما وزع سائر الأتباع حيث أمرهم بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا، تخفيفاً على الدعوة من الأعباء، وإبعاد لهم عن مواطن الخطر وسترا لقوتهم، وضمان للسرية وإعداداً للمستقبل، وضمان الاستمرار وتجنب الاستئصال³.

وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجتمع سرا بمن أسلم سرا في دار الأرقم، وبقيت السرية قائمة في هذه الدار⁴، وكان بها يتلوا عليهم ما ينزل من القرآن، يجتمع بهم يوماً ليشبثهم ويزيدهم إيماناً بدعوتهم ويعلمهم طرقها وأساليبها وأدائها⁵، فاختر لهم دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزاً سرية مكاناً بعيداً عن الأعين، لأن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه من بني مخزوم، وهي القبيلة التي تحمل لواء المعارضة للدعوة، وحتى لو اكتشفوا أمر إسلامه، فلا يخطر على بالهم أن يكون اللقاء في داره، لأن ذلك يعني أنه كان يتم في قلب صفوف العدو، وكان الأرقم فتى عند إسلامه في السادسة عشر من

¹- صحيح مسلم: كتاب: صلاة المسافر وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم: 1373

²- النووي أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط2، 1392هـ، [ج6/ 116]

³- سعيد حوى: الأساس في السنة، ص226

⁴- المصدر نفسه، ص235

⁵- مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص27، 29

عمره، فلا يخطر على بال قريش أن تبحث في بيوت الفتیان، وبقیت الدار مجهولة على قيادة قريش، ولم تعرف إلا بعد إسلام عمر بن الخطاب¹، فكان اختيار المكان غاية في الحكمة من الناحية الأمنية، ولم يسمع أبدا أن قريشا داهمت يوما هذا المركز وكشفت مكان اللقاء، وأقصى ما وصلت إليه أن يكون اللقاء في دار عند الصفا²، لكن قريش ما تلبث حتى تكشف أمر إسلام من أسلم مثل انكشاف إسلام أخت عمر بن الخطاب وزوجها لعمر³.

ج/ ما كان يجهر به في هذه المرحلة: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجهر بنبوته⁴ ويعلمها للناس، ويجهر بأنه رسول من الله، ويدعوهم لعبادة الله وحده وترك الأوثان وصلة الأرحام، وإظهار العبادة والصلاة ويجهر بقراءة القرآن كما جهر بتسفيه عقائد المشركين⁵، وسائر ما كان يخفيه في المرحلة السابقة، فصار يدعو الناس إلى الإسلام جماعيا رغم استمرار الدعوة الفردية أيضا⁶.

د/ طريقة الدعوة ووسائلها: كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يرتاد المواسم وأسواق العرب، ويدعو الناس للإيمان بالله ونبذ الأصنام والأوثان⁷.

ثانيا: محتوى الدعوة في هذه المرحلة

أ/ القرآن الكريم: كان يلقت أتباعه القرآن الكريم في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ويسمعهم الحديث النبوي⁸ الشريف ما يثبت به أفئدتهم.

ب/ الصلاة: ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما كان وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد، وذهب الحربي إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، وذكر الشافعي عن بعض أهل العلم أن صلاة الليل كانت مفروضة ثم نسخت بقوله تعالى (فاقرءوا ما تيسر منه) فصار الفرض قيام بعض الليل، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس⁹، والذي يثبت أنها كانت في الغداة والعشي كما في المرحلة الأولى، فإنه صلى الله عليه وسلم كان قبل الإسراء يصلي قطعا، وكذلك أصحابه لكن اختلف هل افترض قبل الخمس شيء من الصلاة أم لا؟

¹ منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص38

² منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص39

³ سعيد حوى: الأساس في السنة، ص235

⁴ منير الغضبان: المصدر السابق، ص31

⁵ أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص145، 170

⁶ سعيد حوى: الأساس في السنة، ص235

⁷ منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص104

⁸ أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص39

⁹ فتح الباري: ج1، ص553-554

فيصح على هذا قول من قال: إن الفرض أولا كان صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، والحجة فيه قوله تعالى (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها)¹.

أما صلاة الغداة فكانوا يصلونها أحيانا في الكعبة قبل أن تلتفتهم الأنظار، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حريصا على الصلاة في الكعبة، وإذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب مثنى وفرادى، يصلون الضحى والعصر ركعتين ركعتين، في مرحلة البناء لاشيء أكبر من التركيز على العبادة، فهي التي تصل القلب بالله، وتعله أكبر من الخنة وأعصى على الفتنة وأثبت على الحق².

ج/ما كان يدعو إليه في هذه المرحلة: كان يدعو في هذه المرحلة ويجهز بالوحدانية والرسالة وهما محور الدعوة، وتحتوي على:

-الإيمان بالله الواحد، وتعني نقض عقيدة أهل الجاهلية كلها

-الإيمان برسوله-صلى الله عليه وسلم- نبيا ورسولا

-الإيمان باليوم الآخر

-المساواة بين الناس من حيث الأصل البشري، وتعني نقض أكبر قيم الجاهلية التي تقوم على الأسياد والعبيد، وهو أكبر ما صدم الملأ من قريش وغيرها، أن يعتقدوا بأن مواليهم وعبيدهم من الممكن أن يكونوا خيرا منهم³.

د/التربية والتعليم في هذه المرحلة: كانت دار الأرقم مقرا سريرا للدعوة والتربية والتعليم والعبادة منذ السنوات الأولى من البعثة، فأسلم قيها قوم كثير حتى سميت دار الإسلام⁴.

ه/دور المرأة في الدعوة في هذه المرحلة: كان ربع من أسلم من الأوائل من النساء، ومعظم الشباب المتزوجين أسلمت معهم زوجاتهم، وعشن المرحلة السرية دون أن يدري بهن أحد وحافظن على السر وكنتمته، فكانت بجانب الرجل أختا وزوجا وأما تعيش هم⁵، وأبرزهن خديجة بنت خويلد، وسمية أم عمار بن ياسر التي استشهدت تحت التعذيب، وأسماء التي كان عمرها عند البعثة عشر سنوات، ويكفي أن يذكر تاريخ الإسلام باعتزاز أن أول خلق الله إسلاما امرأة

¹ -فتح الباري، ج8، ص539

² -منير الغضبان:المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص40-41

³ -منير الغضبان:المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص35،37،38

⁴ -سعيد حوى:الأساس في السنة، ص246، 247

⁵ -منير الغضبان:المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص22-23

وأول شهيد في الإسلام امرأة، فلم تكن المرأة بعيدة عن الميدان، بل تكلفت بصبر وبطولة آلام العذاب في سبيل الله، فالنهديّة تلقّت العذاب حتى عميت وسميت حتى استشهدت وفاطمة بنت الخطاب دافعت عن زوجها¹ بكل بطولة.

أما خديجة بنت خويلد فهي التي احتضنت الدعوة والداعية من أول لحظة، ووضعت ثروتها تحت تصرفه، وصبرت على المقاطعة والفقر وهي سليلة الغنى والثروة، وكان لها موقف الموسسي والمشجع لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- والمثبت².

ثالثاً: موقف قريش من الدعوة في هذه المرحلة: حينما صدع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالدعوة إلى الإسلام، في قريش وعمامة العرب، فاجأهم بما لم يكونوا يتوقعونه أو يألفونه، وذلك واضح في رد أبي لهب عليه، وفي اتفاق معظم زعمائهم على ماداته ومقاومته³.

أ/ الاضطهاد والتنكيل بالأتباع: بدأت بعد الجهر بالدعوة مرحلة الإيذاء للمؤمنين ولرسول الله -صلى الله عليه وسلم-⁴، ثم اشتدت مقاومة قريش للدعوة تدريجياً، لأن إعلان الدعوة اقتضى من المسلمين مواجهة المشركين بحقائق التوحيد وفساد الشرك، مما جعل المشركون يلحقون الأذى بالرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، واتخذ الأذى صوراً شتى من السب العلني والضرر المادي⁵، روى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود قال كان أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسواهم أذراع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد آتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد⁶، أي أنهم كانوا يخفون إسلامهم خوفاً من أذى المشركين وهؤلاء السبعة سبقوهم بإظهار الإسلام، وانكفأت كل قبيلة على أبنائها تعذبهم ألوان العذاب وصنوفه لتصرفهم عن الدين وتصدهم عنه، كما فعل أمية بن خلف الجمحي ببلال بن رباح، وعمار بن ياسر مولى بني مخزوم أسلم مع أبيه وأمه فكان أبو جهل والمشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرضياء فيعذبونهم بجرها، حتى مات أبوه

¹ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 89

² - المصدر نفسه، ص 89

³ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 73

⁴ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص 27

⁵ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 146-147

⁶ - سنن ابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد، رقم: 147، ومسند أحمد: كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن

مسعود، رقم: 3640

تحت التعذيب وطُعت أمه برمح بصدرها واستشهدت¹، ومن صور معاناتهم ما رووه بأنفسهم، حتى جعل البخاري في كتابه باباً كاملاً عنونه بقوله: باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة²، أي من وجه الأذى، وروى ابن إسحاق من حديث ابن عباس وذكر الصحابة فقال (والله كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله، فيقول: نعم)³، حتى شكى المسلمون ما يقع لهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكان يأمرهم بالثبات والصبر ويبشرهم بالفوز والتمكين لهم، روى البخاري عن خباب بن الأرت قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسدٌ بؤداه له في ظل الكعبة فقلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا قال كان الرجل فيمن قبلكم يُخفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق بالثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون⁴.

إن طلب خباب الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم على الكفار، دال على أنهم كانوا قد اعتدوا عليهم بالأذى ظلماً وعدواناً، ولكن الحكمة كانت تقتضي أن يتلى الذي أمنوا بأنواع من البلوى ليؤجروا عليها كما جرت به عادة الله تعالى في من اتبع الأنبياء فصبروا على الشدة في ذات الله، ثم كانت لهم العاقبة بالنصر وجزيل الأجر، ولا شك إذا كنت فيهم وكنت ضعيف الإيمان فإنك لا يمكن أن تصدق مثل هذا، اللهم إلا أن يكون صادراً عن نبي تؤمن به حق الإيمان المؤيد بالمعجزة الباهرة، عندها فقط يمكن أن تصدقه، وأنت تسمعه يمنيك بنشر الأمن والسلام في شبه جزيرة السلب والنهب والغارة، وهو يقسم [والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون]، وكان أبو بكر يعتق المستضعفين من الرقيق ويحررهم من العذاب الذي كان يسلط عليهم، وأجأ ذلك المسلمين إلى الاختباء في دار الأرقم، ثم أسفر عن المهجرتين إلى الحبشة⁵.

ب/ ثبات المسلمين على دينهم: رغم ما تعرض له المسلمون من أصناف العذاب، فإنهم ثبتوا على الحق وصبروا، ولم يرد أحد منهم عن دينه، فهي مرحلة كف البيد والاكتفاء بالتبليغ وعدم مواجهة آذاهم المادي والمعنوي، واهتموا بإيضاح معالم الدعوة غير عابئين بغضب خصومهم أو مشاعرهم أو آرائهم⁶.

¹ منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 44-45

² صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة

³ فتح الباري، ج 7، ص 203

⁴ صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم: 3343

⁵ سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 214

⁶ منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 25، 34، 35

إن الإنسان مكلف ومطالب من قبل الله تعالى بحمل ما فيه كلفة ومشقة، وأمر الدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته، من أهم متعلقات التكليف، الذي استلزم تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، وسلوك السبل الشاقة واقتحام المخاطر، وبذل المهج والمال من أجل ذلك، فما يلاقيه الدعاة إلى الله تعالى والمجاهدون في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي، سنة إلهية في الكون¹.

ج/الصد والإعراض عن الدعوة: مواجهة قريش بالجهر بالدعوة ومفاجئتهم بها، لم تلق منه استجابة، بل لقيت صدا وإعراضا مباشرا وكيدا عنيفا².

د/السخرية والتحقير والاستهزاء: وكانت السخرية والاستهزاء من الرسول-صلى الله عليه وسلم- ودعوته، والتكذيب له، أحد الأساليب التي اتبعها المشركون في الحرب الكلامية لصرف الناس عن الدعوة³، وتخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية، فرموه بتهم هازلة وشتائم سفيهة، ولكن أسلوب الاستهزاء والسخرية والإيذاء لم يفلح وفشلوا⁴ في صدده عما هو بسبيله.

د/تشويه تعليمه: بإثارة الشبهات وبث الدعايات الكاذبة، حول تعاليم الدعوة وحول ذاته وشخصيته، قصد صد الناس عن الاستجابة لدعوته، ومعارضة القرآن الكريم بأساطير الأولين، وتشغيل الناس بما عنه⁵.

هـ/التفاوض والعروض: لما رأت قريش ثبات المسلمين مع رسول الله-صلى الله عليه وسلم- على عقيدتهم، قررت أن تفاوضه، وعضوا عليه أن يغنوه بالأموال ويملكوه⁶ عليهم إن هو قبل ترك الدعوة للإسلام، ونوعوا في أساليب الإغراء تارة بالمساومات وتارة بمحاولات التوفيق، بين دعوته وبين الجاهلية في العبادة وغيرها⁷.

رابعاً: طرق ووسائل حماية الدعوة ورجالها

أ/الحفاظ على سرية الأتباع والاختباء بهم في دار الأرقم: فلم يكن النبي-صلى الله عليه وسلم-، يخبر باسم أي شخص ممن أسلم معه، ولا يصرح لأحد بعدد المسلمين، بل كان إذا سئل عنهم استخدم مع السائل أسلوب التورية،

¹ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص78

² - سعيد حوى: الأساس في السنن، ص239

³ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص152

⁴ -- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص56

⁶ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص27

⁷ -- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص56

وكنى عن الأحرار بحر وعن العبيد بعبد، ولم يعلمه باسم أحد منهم كما سبق في حديث عمرو بن عبسة¹، ومن جهة ثانية فكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يخفف من عدد الأتباع ولا يكدر في مكان واحد، فيأمر من له مأوى يأوي إليه بالعودة بعد إسلامه إلى قبيلته، كما وزع سائر الأتباع حيث أمرهم بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا، تخفيفاً على الدعوة من الأعباء، وإبعاد لهم عن مواطن الخطر وستر لقتوهم، وضمان للسرية وإعداد للمستقبل، وضمان الاستمرار وتجنب الاستئصال²، وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يجتمع سرا بمن أسلم سرا في دار الأرقم³.

ب/الاستفادة من قانون الحماية والجوار: ودل حديث ابن مسعود على أن النبي-صلى الله عليه وسلم- كان في جوار عمه، ودخل بعد الطائف مكة في جوار المطعم بن عدي، وأبو بكر في جوار قومه، ثم في جوار ابن الذغنة سيد القارة ودخل مكة في جواره بعد رده من الطريق في هجرة الحبشة⁴، وكذلك من عرف إسلامه من سائر القبائل كانوا في جوار قبائلهم، روى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود قال كان أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمار وأمه سميّة وصهيب وبلال والمقداد فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أذراع الحديد وصهروهم في الشمس⁵...

ج/هجرة الحبشة الأولى: بدأ النبي-صلى الله عليه وسلم- يبحث عن قاعدة أخرى غير مكة في وقت مبكر من الدعوة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويفتح لها الأفق لتتخلص من التجميد الذي انتهت إليه في مكة، فكان هدف الهجرة البحث عن قاعدة حرة وآمنة للدعوة يحظى فيها الأتباع بالحماية من الاضطهاد والفتنة⁶، فجاءت الهجرة الأولى إلى الحبشة في شهر رجب السنة الخامسة من البعثة، خرج مهاجراً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وقيل: امرأتان، وقيل: كانوا اثني عشر رجلاً وقيل: عشرة، وأنهم خرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار، وذكر ابن إسحاق أن السبب في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما رأى المشركين يؤذونهم ولا يستطيع أن يكتفهم عنهم "إن بالحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد، فلو خرجتم إليه حتى يجعل الله لكم فرجاً، فكان أول من خرج منهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وقد سرد ابن إسحاق أسماءهم، فأما

¹- صحيح مسلم: كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم: 1373

²- سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 226

³- المصدر نفسه، ص 235

⁴- روى ذلك البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الثمار بكره وعشية فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً قبل الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الذغنة وهو سيد القارة فقال أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر أخبرني قومي فأنا أريد أن أسبح في الأرض فأعبد ربي قال ابن الذغنة إن مثلك لا يخرج ولا يخرج فإنك تكسب المغدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوابي الحق وأنا لك خازن فانزع فأعبد ربك ببلادك...، كتاب: الحوالات، باب: جوار أبي بكر في عهد النبي وعقده، رقم: 2134

⁵- سنن ابن ماجه: كتاب: المقدمة، باب: فضل سلمان وأبي ذر والمقداد، رقم: 147، ومسند أحمد: كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود، رقم: 3640

⁶- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 50

الرجال فهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وأبو حذيفة بن عتبة ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسود وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وسهيل بن بيضاء وأبو سبرة بن أبي رهم العامري, قال ويقال بدله حاطب بن عمرو العامري, قال: فهؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى الحبشة، قال ابن هشام: وبلغني أنه كان عليهم عثمان بن مظعون, وأما النسوة فهن رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم وسهلة بنت سهل امرأة أبي حذيفة وأم سلمة بنت أبي أمية امرأة أبي سلمة وليلى بنت أبي حثمة امرأة عامر بن ربيعة, ووافقه الواقدي في سردهن وزاد اثنين عبد الله بن مسعود وحاطب بن عمرو, مع أنه ذكر في أول كلامه أنهم كانوا أحد عشر رجلا فالصواب ما قال ابن إسحاق أنه اختلف في الحادي عشر هل هو أبو سبرة أو حاطب, لكنهم عادوا في خبر لابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرهما ذكروا أن المسلمين بلغهم وهم بأرض الحبشة أن أهل مكة أسلموا, فرجع ناس منهم عثمان بن مظعون إلى مكة فلم يجدوا ما أخبروا به من ذلك صحيحا, فرجعوا, وسار معهم جماعة إلى الحبشة, وهي الهجرة الثانية¹.

د/هجرة الحبشة الثانية: وكان عددهم في هذه الهجرة يفوق الثمانين، روى أحمد بإسناد حسن عن ابن مسعود قال: "بعثنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلا فيهم عبد الله بن مسعود وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن عرفطة وعثمان بن مظعون وأبو موسى الأشعري", وقد استشكل ذكر أبي موسى فيهم, لأن المذكور في الصحيح أن أبا موسى خرج من بلاده هو وجماعة قاصدا النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فألقتهم السفينة بأرض الحبشة فحضروا مع جعفر إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخير, ويمكن الجمع بأن يكون أبو موسى هاجر أولا إلى مكة فأسلم فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم مع من بعث إلى الحبشة فتوجه إلى بلاد قومه وهم مقابل الحبشة من الجانب الشرقي, فلما تحقق استقرار النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمدينة هاجر هو ومن أسلم من قومه إلى المدينة فألقتهم السفينة لأجل هيجان الريح إلى الحبشة, فهذا محتمل, ويحتمل أن إقامة أبي موسى بأرض الحبشة طالت لأجل تأخر جعفر عن الحضور إلى المدينة حتى يأتيه الإذن من النبي صلى الله عليه وسلم بالقدوم, وأما عثمان بن مظعون فذكر فيهم وإن كان مذكورا في الأول, لأن ابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرهما من أهل السير ذكروا أن المسلمين بلغهم وهم بأرض الحبشة أن أهل مكة أسلموا, فرجع ناس منهم عثمان بن مظعون إلى مكة فلم يجدوا ما أخبروا به من ذلك صحيحا, فرجعوا, وسار معهم جماعة إلى الحبشة, وهي الهجرة الثانية، وسرد ابن إسحاق أسماء أهل الهجرة الثانية وهم زيادة على ثمانين رجلا, وقال ابن جرير الطبري: كانوا اثنين وثمانين رجلا سوى نسائهم وأبنائهم, وشك في عمار بن ياسر هل كان فيهم وبه تتكامل العدة ثلاثة وثمانين, وقيل: إن عدة نسائهم كانت ثمانين امرأة, وقد كانت أسماء هاجرت فيمن هاجر إلى النجاشي².

¹ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري: ج7، ص226-227

² ابن حجر العسقلاني: فتح الباري: ج7، ص227

فلو أنهم هاجروا لمجرد النجاة بأنفسهم، لهاجر الموالي والمستضعفون، الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة، ولكن هاجر رجال ذوو عصبيات- في بيئة قبلية- لهم ما يعصمهم من الأذى ويحميهم، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين... كما هاجرت نساء من أشرف بيوتات مكة، ما كان الأذى لينالهن أبدا¹، وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى، كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش،... في بيئة قبيلة تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزا عنيفا، وخاصة عندما يكون بين المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم الجاهلية².

ه/موقف قريش من هجرة الحبشة: روى الإمام أحمد عن أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه فلما بلغ ذلك قريشنا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدتين وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم فجمعوا له أدمًا كثيرًا ولم يتركوا من بطارقتيه بطريقًا إلا أهدوا له هدية ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي وأمرهما أمرهم وقالوا لهما اذفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم ثم قدموا للنجاشي هداياه ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم قالت فخرجنا فقدمنا على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير جار فلم يبق من بطارقتيه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي ثم قالوا لكل بطريق منهم إنّه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرف قومهم ليردّهم إليهم فإذا كلمنا الملك فيهم فثشروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فقالوا لهما نعم ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له أيها الملك إنّه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لتردّهم إليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه قالت ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم فقالت بطارقتيه حوله صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم قال فعضب النجاشي ثم قال لا ها الله إنم الله إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قومًا جاوروني ونزلوا بلادني واختاروني على من سواي حتى أذعوههم فأسألهم ماذا يقول هذان في أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددّتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنّت جوارهم ما جاوروني قالت ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض ما

¹ منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص50

² المصدر نفسه، ص50

تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ قَالُوا نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلَّمْنَا وَمَا أَمَرْنَا بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ فَلَمَّا جَاءُوهُ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيَّ أَسَافَقْتَهُ فَتَشَرُّوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فَقَالَ مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَمَا تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ قَالَتْ فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسيءُ الْجَوَارِ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنُخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَدْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْتَاهُ وَأَمَّنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَدُّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيُرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْحَبَائِثِ فَلَمَّا فَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ قَالَتْ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالَتْ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ نَعَمْ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ فَأَفْرَأَهُ عَلَيَّ فَمَرَّ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كَهَيْعِصِ قَالَتْ فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وَبَكَتْ أَسَافِقْتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيُخْرِجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ أَنْطَلِقَا فَوَاللَّهِ لَا أَسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلَا أُكَادُ قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَاللَّهِ لَأُنَبِّئَنَّهُمْ عَدَا عَيْبُهُمْ عِنْدَهُمْ ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضِرَاءَهُمْ قَالَتْ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَكَانَ أَتَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ هُمُ أَرْحَامًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا قَالَ وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ قَالَ ثُمَّ عَدَا عَلَيْهِ الْعَدُوُّ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ قَالَتْ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ قَالَتْ وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ قَالُوا نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ هُمُ مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبُتُولِ قَالَتْ فَضْرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُوْدًا ثُمَّ قَالَ مَا عَدَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُوْدَ فَتَنَاخَرَتْ بِطَارِقَتِهِ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ فَقَالَ وَإِنْ نَحَرْتُمْ وَاللَّهِ أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي وَالسُّيُومُ الْأَمْنُونَ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمْ ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمْ فَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي دَبْرًا ذَهَبًا وَأَيُّ آدِيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ وَالذَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ رُدُّوا عَلَيْنَهُمَا هَدَايَاهُمَا فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَأَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِي فِئَاتِهِمْ فِيهِ قَالَتْ فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مُقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْنَهُمَا مَا جَاءَ بِهِ وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِحَيْرٍ دَارٍ مَعَ خَيْرٍ جَارٍ قَالَتْ فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ

إِذْ نَزَلَ بِهِ يُنَازِعُهُ فِي مَلِكِهِ قَالَ قَوْلَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنَاً قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنِ حَزْبَانِهِ عِنْدَ ذَلِكَ تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ فَيَأْتِي رَجُلًا لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّ مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ قَالَتْ وَسَارَ النَّجَاشِيُّ وَبَيْنَهُمَا عُرْضُ النَّيْلِ قَالَتْ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَجُلٍ يُخْرِجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقَعَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبْرِ قَالَتْ فَقَالَ الرَّبِيزِيُّ بْنُ الْعَوَّامِ أَنَا قَالَتْ وَكَانَ مِنْ أَحَدِثِ الْقَوْمِ سِنًا قَالَتْ فَتَفَخَّخُوا لَهُ قَرِيْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ ثُمَّ سَبَّحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النَّيْلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ قَالَتْ وَدَعَوْنَا اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ وَالتَّمَكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ وَاسْتَوَسَّقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِمَكَّةَ¹.

إن مبادرة قريش لاستعادة المهاجرين، تدل على إدراكها لخطورة الموقف، إذا حصل المسلمون على مأوى لهم يأمنون فيه، والحبشة نصرانية وملكها عُرف بالعدل وهي قريبة من مكة، وذلك يشكل خطرا على قريش في المستقبل².

خصائص ومميزات المرحلة المكية الثالثة [من إسلام عمر إلى 6-10] من البعثة

أولا: إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- ونتاجه

أ/ إسلام حمزة وعمر -رضي الله عنهما-

1/ إسلام حمزة: أسلم حمزة قبل إسلام عمر بن الخطاب بثلاث أيام، وجاء في ظروف أشد حالات الأزمة، حيث كانت قريش تخطط لقتل النبي -صلى الله عليه وسلم- في أكثر من خطة³.

2/ إسلام عمر

*عمر قبل الإسلام: كان عمر قبل إسلامه يشارك في تعذيب المسلمين، روى البخاري عن قَيْسٍ قَالَ سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ بْنَ عَمْرٍو بْنِ ثَقَيْلٍ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ يَقُولُ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنَّ عُمَرَ لَمَوْثِقِي عَلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عُمَرُ وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا ازْفَضَّ لِلَّذِي صَنَعْتُمْ بِعُثْمَانَ لَكَانَ⁴، قال ابن حجر: قوله: (وإن عمر لموثقي على الإسلام) أي ربطه بسبب إسلامه إهانة له وإلزاما بالرجوع عن الإسلام، وكان السبب في ذلك أنه كان زوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر،

¹ -مسند الإمام أحمد: كتاب: مسند أهل البيت، باب: حديث جعفر بن أبي طالب، رقم: 1649

² - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 174

³ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 61

⁴ - صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: إسلام سعيد بن زيد، رقم: 3573

ولهذا ذكر في آخر باب إسلام عمر "رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته" وكان إسلام عمر متأخرا عن إسلام أخته وزوجها، لأن أول الباعث له على دخوله في الإسلام ما سمع في بيتها من القرآن في قصة طويلة ذكرها الدارقطني وغيره¹.

*** دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - لعمر بالإسلام:** روى الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب قال وكان أحبهما إليه عمر²، قوله: اللهم أعز الإسلام، أي قوه وانصره واجعله غالبا على الكفر، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب وكان أحبهما إليه، أي إلى الله سبحانه وتعالى، وفي حديث ابن عباس فأصبح فعدا عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، وفي فضائل الصحابة لحيثمة من طريق أبي وائل عن ابن مسعود قال قال (اللهم أيد الإسلام بعمر)³.

*** سبب إسلام عمر بن الخطاب:** روى الإمام أحمد: عن شريح بن عبيد قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد فمضت خلفه فاستفتحت سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال فقلت هذا والله شاعر كما قالت قرين قال فقرا أنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون قال قلت كاهن قال ولا بقول كاهن قليلا ما تدكرون تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين إلى آخر السورة قال فوقع الإسلام في قلبي كل موقع⁴.

وواضح تماما أن سبب إسلام عمر هو سماعه القرآن الكريم في هذه المرة، ومرة أخرى في بيت أخته، ووردت القصة فيما أخرجه الدارقطني عن أنس قال خرج عمر متقلدا السيف فلقية رجل من بني زهرة فذكر قصة دخول عمر على أخته وإنكاره إسلامها وإسلام زوجها سعيد بن زيد وقراءته سورة طه ورغبته في الإسلام فخرج خباب فقال أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لك اللهم أعز الإسلام بعمر أو بعمر بن هشام⁵.

*** إسلام عمر في السنة السادسة من البعثة:** وجعل ابن إسحاق إسلام عمر بعد هجرة الحبشة، وقد ذكر ابن إسحاق من وجه آخر أن إسلام عمر كان عقب هجرة الحبشة الأولى⁶.

¹ - فتح الباري، ج7، ص214

² - سنن أبو داود: كتاب المناقب عن رسول الله، باب: في مناقب عمر بن الخطاب، رقم: 3614

³ - المباركفوري أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذ بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت، [ج10/ 116]

⁴ - مسند أحمد: كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب، رقم: 102

⁵ - المباركفوري أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذ بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت، [ج10/ 116]

⁶ - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، 1379، [ج7/ 182]

***موقف قريش من إسلام عمر بن الخطاب:** لقد كان رد فعل قريش عنيفا أمام حادثة إسلام عمر بن الخطاب، حيث اجتمعوا على قتله¹، روى البخاري: عن زَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ بَيْنَمَا هُوَ فِي الدَّارِ خَائِفًا إِذْ جَاءَهُ الْعَاصِمُ بْنُ وَائِلِ السَّنَهْمِيُّ أَبُو عَمْرِو عَلَيْهِ حُلَّةٌ حَبْرَةٌ وَقَمِيصٌ مَكْفُوفٌ بِحَرِيرٍ وَهُوَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ وَهُمْ حُلَفَاؤُنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ لَهُ مَا بِأَلَيْكَ قَالَ زَعَمَ قَوْمُكَ أَنَّهُمْ سَيَقْتُلُونِي إِنْ أَسْلَمْتُ قَالَ لَا سَبِيلَ إِلَيْكَ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا أَمِنْتُ فَخَرَجَ الْعَاصِمُ فَلَقِيَ النَّاسَ قَدْ سَأَلَ بِهِمُ الْوَادِي فَقَالَ أَيُّنَ تُرِيدُونَ فَقَالُوا نُرِيدُ هَذَا ابْنَ الْخَطَّابِ الَّذِي صَبَا قَالَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ فَكَرَّرَ النَّاسُ².

***نتائج إسلام عمر بن الخطاب:** روى البخاري: عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ³.

قال ابن حجر أي لما كان فيه من الجلد والقوة في أمر الله، وروى ابن أبي شيبة والطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: "كان إسلام عمر عزا، وهجرته نصرا، وإمارته رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر"، وفي "فضائل الصحابة"، وروى ابن سعد أيضا من حديث صهيب قال: لما أسلم عمر قال المشركون انتصف القوم منا⁴، ولقد عز الإسلام بعمر من حيث أنه حمل هذا الدين جهرة وتحدى به وصارع من أجله، وبإسلامه وإسلام حمزة ووجد وضع جديد بمكة⁵.

ب/ الجهر بالأتباع والخروج من دار الأرقم

1/ بلوغ المسلمين الأربعين: كان الجهر بالمسلمين وإعلانهم الإسلام نتيجة لإسلام عمر وبلوغ المسلمين به الأربعين، روى ابن أبي خيثمة من حديث عمر نفسه قال: (لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تسعة وثلاثون رجلا فكملمتهم أربعين، فأظهر الله دينه، وأعز الإسلام)، وروى البزار من حديث ابن عباس قال (فتزل جبريل فقال: يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)، وروى أبو جعفر بن أبي شيبة في تاريخه من حديث ابن عباس، وفي آخره (فقلت يا رسول الله ففيم الاختفاء؟ فخرجنا في صنفين: أنا في أحدهما، وحمزة في الآخر، فنظرت قريش إلينا فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها)⁶، يضاف إلى الأربعين المهاجرين إلى الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة⁷.

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 180

² - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب، رقم: 3575

³ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي، رقم: 3408

⁴ - فتح الباري، ج 7، ص 59

⁵ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 260

⁶ - فتح الباري، ج 7، ص 59

⁷ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص 68

2/ الخروج من دار الأرقم بالاتباع: جاء عمر بن الخطاب إلى دار الأرقم حيث يخفي النبي -صلى الله عليه وسلم - أتباعه وأسلم بها، روى أبو جعفر بن أبي شيبة في تاريخه من حديث ابن عباس (فقلت يا رسول الله فقيم الاختفاء؟ فخرجنا في صنفين: أنا في أحدهما، وحمزة في الآخر، فنظرت قريش إلينا فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها)¹.

3/ بدأ مرحلة جديدة من الدعوة: وبإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، كان لهما الدور الأكبر في إنهاء مرحلة معينة وابتداء مرحلة جديدة، عندما عرض على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إعلان جهرية العبادة والقيام بتظاهرة علنية جماعية في مكة، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم -الظروف غدت مواتية، استجاب لرغبة الفاروق وخرج بالمسلمين في صنفين من دار الأرقم، وأعلن في مكة صوت الإسلام مدويا، ودخل الكعبة بالمسلمين، هذه الخطوة الحاسمة، أعطت حرية العبادة للمسلمين جميعا، وعجز المشركون أن يولوا دون ذلك، وأظهر من كان مستخفيا إسلامه، فكان إسلامهما منعظا جديدا في الدعوة الإسلامية، لأنه خطا بالدعوة من مرحلة الخوف والاضطهاد والتعذيب إلى مرحلة العلنية والحرية في العبادة².

ج/ ما كان يجهر به في هذه المرحلة

1/ الجهر بالقرآن في النوادي: وجهروا في هذه المرحلة بالقرآن، ولم يكونوا قبل ذلك يقدرون على أن يجهروا به³.

2/ الجهر بالصلاة عند الكعبة: كان المسلمون لا يقدرون على الصلاة عند الكعبة حتى أسلم عمر⁴، روى ابن أبي شيبة والطبراني من طريق القاسم بن عبد الرحمن قال قال عبد الله بن مسعود كان إسلام عمر عزا وهجرته نصرا وإمارته رحمة والله ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر⁵.

3/ ما تم تحقيقه في هذه المرحلة: ما تحقق في هذه المرحلة هو الحصول على حرية العبادة والدعوة وإعلان ظهور من كان مستخفيا، فحصل المسلمون على حق الدخول إلى الكعبة والصلاة فيها، وحق التجمع حولها ودعوة الناس للإسلام، وكان هذا نصرا عظيما للإسلام وخطوة على الطريق، لقد قاد هذا لانقلاب في الأمور، إلى زيادة في التميز والمفاصلة، وصار المسلمون قادرين على إعلان عبادتهم وحقيقة مبادئهم للناس جميعا، وإعلان أنفسهم وهويتهم ودينهم⁶.

¹ - فتح الباري، ج7، ص59

² - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص64

³ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص246

⁴ - المصدر نفسه، ص246

⁵ - فتح الباري، ج7، ص59

⁶ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص65

أ/عزم قريش على قتل النبي-صلى الله عليه وسلم- وحصار الشعب [7-10] من البعثة

ترتب على إسلام حمزة وعمر وضعاً جديداً¹، وفشلت قريش في استعادة المهاجرين من الحبشة²، مما جعلها تفكر في حربها على الإسلام في وسائل جديدة³، وأجمعت أمرها جادة على قتل رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، فأجمع بنو عبد المطلب أمرهم على أن يدخلوا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- شعبهم ويحموه فيه، فدخلوا الشعب جميعاً مسلمهم وكافرهم⁴، وتعاقدت قريش على بني المطلب وبني هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم حتى يسلموهم رسول الله-صلى الله عليه وسلم- للقتل، وكتبوا في ذلك الصحيفة⁵ وعلقوها في جوف الكعبة⁶، وكان ذلك في بداية السنة السابعة للبعثة واستمر ثلاث سنوات، وانتهى في المحرم من السنة العاشرة، على يد رجال من قريش أجمعوا على نقض الصحيفة، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو بن الحارث العامري⁷، وكذلك المطعم بن عدي، وكان من أشد من قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصروهم في الشعب⁸.

ب/أثر الحصار: لما دخل بنو هاشم وبنو عبد المطلب الشعب، قطعت قريش عنهم الأسواق حتى كان يسمع صوت أبنائهم ونسائهم يضاعون من وراء الشعب من الجوع⁹، واشتد عليهم البلاء والجهد، روى البخاري عن سعد قال رأيتني سابع سبعة مع النبي صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الحبلبة أو الحبلبة حتى يصنع أحدنا ما تصنع الشاة ثم أصبحت بنو أسد تُعزِّزني على الإسلام خسرت إذا وصل سعيي¹⁰.

وروى مسلم عن خالد بن عمير العدوي قال خطبنا عتبة بن عزوان وكان أميراً على البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال... ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى فرحت أشدافنا فالتقطت برده فشققتها ببني وبين سعد بن مالك فأنزرت بنصفها وأنزرت سعد بن نصفها فما أصبح اليوم منا أحد إلا

¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 248

² - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 182

³ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 248

⁴ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 182

⁵ - المصدر نفسه، نفس الصفحة

⁶ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 83

⁷ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 263

⁸ - فتح الباري، ج 7، ص 376

⁹ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 83

¹⁰ - صحيح البخاري: كتاب الأطعمة، باب: ما كان النبي وأصحابه يأكلون، رقم: 4992

أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةَ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا فَسَتَجُحِبُونَ وَتُجْرَبُونَ الْأَمْرَاءَ بَعْدَنَا¹.

ج/دعوة النبي-صلى الله عليه وسلم- على قريش بسبع كسبع يوسف: روى الترمذي عن مسروق قال جاء رجل إلى عبد الله فقال... إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى قُرَيْشًا اسْتَعَصَمُوا عَلَيْهِ قَالَ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبَعِ يُوسُفَ فَأَخَذْتَهُمْ سَنَةً فَأَحْصَتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَقَالَ أَحَدُهُمَا الْعِظَامَ قَالَ وَجَعَلَ يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ لَكُمْ قَالَ فَهَذَا لِقَوْلِهِ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ مَنْصُورٌ هَذَا لِقَوْلِهِ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ فَهَلْ يُكْشَفُ عَذَابُ الْآخِرَةِ قَدْ مَضَى الْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ وَاللِّزَامُ وَاللِّزَامُ وَقَالَ الْآخِرُ الرُّومُ قَالَ أَبُو عِيْسَى وَاللِّزَامُ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ².

قال الله تعالى حكاية عن المشركين لما أصابهم قحط وجهد قالوا:(ربنا اكشف عنا العذاب) وهو القحط الذي أكلوا فيه الميتات والجلود (إنا مؤمنون) أي مصدقون بنبيك، (أني لهم الذكرى) أي كيف يتذكرون ويتعظون بهذه الحالة (وقد جاءهم رسول مبين) معناه وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة وهو ما ظهر على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات والمعجزات الظاهرة، (ثم تولوا عنه) أي أعرضوا (وقالوا معلم) أي يعلمه القرآن، بشر مجنون، (إنا كاشفو العذاب) أي الجوع عنكم (قليلا) أي زمنا قليلا فكشف عنهم، (إنكم عائدون) أي إلى كفركم فعادوا إليه، (يوم نبطش البطشة الكبرى) هو يوم بدر، والبطش الأخذ بقوة، (إنما منتقمون) أي منهم (فهل يكشف عذاب الآخرة)³.

ه/عام الحزن: كانت فكرة المقاطعة محنة جديدة استمرت ثلاث سنين، أُنْهَكَ فِيهَا أَبُو طَالِبٍ وَخَدِيجَةُ فَتُوفِيَ عَلَى إِثْرِهَا⁴، فكانت وفاة عمه مبعث حزن عميق في نفسه، ووفاة خديجة في نفس السنة وهي التي كانت تخفف عنه همومه وأحزانه، فلما ماتت حزن عليها حزنا شديدا، حتى سمي هذا العام الذي اجتمعت فيه وفتاحها بعام الحزن⁵.

1/وفاة عمه: وحرص النبي-صلى الله عليه وسلم- أن يموت عمه على الإسلام، روى البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةَ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ أَيُّ عَمٍّ قُلِّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي

¹-صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب:باب، رقم:5268

²-سنن الترمذي: كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب:ومن سورة الدخان، رقم:3177

³-المباركفوري أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت، [ج9/ 96]

⁴- سعيد حوى: الأساس في السنة، ص261

⁵-مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص31

أُمِّيَّةً أَتْرَعَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِيَتْلِكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتُكِّمْ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَعْفِفُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ¹.

وفاة أبو طالب وخديجة كانت في أيام متقاربة في عام واحد في السنة العاشرة من البعثة، فتوفي في شهر رجب وجاوز الثمانين من عمره²، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معلومات حتى أصابه مرض الوفاة، وتوفيت خديجة بعده بشهرين، والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ في نحو الخمسين، وأنزل الله في أبي طالب: إنك لا تهدي من أحببت" نزلت في أبي طالب وحده³.

2/ وفاة خديجة: وتوفيت خديجة بعد أبو طالب بشهرين، فكانت وفاتها في شهر رمضان من السنة العاشرة للبعثة ولها خمس وستون سنة⁴، وماتت قبل أن تفرض الصلاة⁵، روى البخاري: عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ تُوفِّيتْ خَدِيجَةَ قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ فَلَبِثَ سِنَيْنِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ وَنَكَحَ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ ثُمَّ بَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ⁶.

و/جراة سفهاء قريش على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد وفاة عمه: لما توفي أبو طالب وكان يوفر الحماية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تجرأ عليه من كان يهابه من سفهاء قريش⁷، وأكثر روايات الإيذاء وقعت في هذه المرحلة، مما اضطره للخروج إلى الطائف⁸، فإن موت عمه أفقده سنداً كبيراً، فلم يعد بنو هاشم مستعدين بعده لتقدم نفس القدر من الحماية⁹.

ثالثاً: موقف قريش من الدعوة في هذه المرحلة

¹ - صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: قوله إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، رقم: 4399

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 273

³ - فتح الباري، ج 8، ص 367-368

⁴ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 273

⁵ - فتح الباري، ج 1، ص 38

⁶ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: تزويج النبي عائشة وقدمها المدينة وبنائه بها، رقم: 3607

⁷ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص 31

⁸ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 273

⁹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 184

أ/شدة الأذى لرسول الله-صلى الله عليه وسلم- وخروجه للطائف: لما توفي أبو طالب، تجرأ عليه سفهاء قريش¹، ازدادت المحنة على الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وبدأت قريش بالإيذاء المباشر له، فكان من آثار ذلك رحلة الطائف للدعوة هناك² وطلب النصرة.

ب/تشديد الأذى بالمسلمين خارج الشعب: كما اشتدت قريش على من أسلم ممن لم يدخل الشعب وعظمت عليهم المحنة، وزلزلوا زلزالا شديدا³.

ج/تشويه الدعوة والداعية: كانت قريش تشوه سمعة الرسول-صلى الله عليه وسلم- لدى الوافدين إلى مكة للحج أو التجارة⁴، فكانوا يرمونه بالسحر والجنون وغيرها، روى مسلم عن ابن عباسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أُرْدِ شَنْوَةَ وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ فَقَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَيَّ يَدَيَّ قَالَ فَلَقِيَهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَزْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَيَّ يَدِي مِنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ تَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ يَهْدِيهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَا بَعْدُ قَالَ فَقَالَ أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَ فَقَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ وَلَقَدْ بَلَغَنَّا نَاعُوسَ الْبَحْرِ قَالَ فَقَالَ هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ قَالَ فَبَايَعَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى قَوْمِكَ قَالَ وَعَلَى قَوْمِي قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْحَيْشِ هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً فَقَالَ رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ ضِمَادٍ⁵.

د/المفاوضات والإغراء: لم تلجأ إليها قريش إلا بعد أن سدت عليهم المنافذ بإسلام عمر وحمزة، ووجدوا خطر المسلمين قد استفحل، فعقد المؤتمر لإنهاء المشكلة مع محمد-صلى الله عليه وسلم⁶، واستطاع النبي-صلى الله عليه وسلم- بعد مفاوضاته زعماء قريش، تحييد عتبة بن ربيعة وانسحب وراءه أكبر تجمع قبلي بعد بني مخزوم هو بنو أمية، واستطاع بذلك أن يخفف من تكالب الأعداء على دعوة الإسلام⁷، ورفض النبي صلى الله عليه وسلم- كل العروض قبل

¹ - مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص31

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص261

³ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص83

⁴ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص90

⁵ - صحيح مسلم: كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم: 1436

⁶ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص77

⁷ - المصدر نفسه، ص80

الاعتراف برسالته والكتاب الذي أنزل عليه، أن يعترفوا بالإسلام شرعا وحكما، ويطبقوا مبادئه ويحكموه فيما شجر بينهم، لأنه لا يريد الحكم لشخصه هو، وإنما يريد الحكم لهذا الدين¹ الجديد الذي بعث به.

في هذا تمحيص وتدقيق في حقيقة الدعوة التي قام بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتمييز لها عن كل ما قد يلتبس بها من الأهداف والأغراض التي قد يضمورها في أنفسهم عادة أرباب الدعوات الجديدة والمنادون الثورة والإصلاح، فهل كان انبي-صلى الله عليه وسلم- يضم من وراء دعوته الوصول إلى ملك أو الزعامة والغنى، لقد سخر الله عُتْبَةَ بن ربيعة وأمثاله، لحمل هذه الدوافع والآمال ووضعها بين يديه، لينالها قريبة سائغة، فلم يلن لهم، ولم يتحول إلى هذه الغنيمة التي سيقَّت إليه، لأنه لم تكن هي الدافع له من وراء رسالته ودعوته².

ه/فرض الحصار: روى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْعَدِ يَوْمَ النَّحْرِ وَهُوَ بِمِئِي نَحْنُ نَازِلُونَ عَدَاً بِحَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الْكُفْرِ يَعْنِي ذَلِكَ الْمُحَصَّبَ وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا وَكِنَانَةَ تَخَالَفَتْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوْ بَنِي الْمُطَّلِبِ أَنْ لَا يُنَاكِحُوهُمْ وَلَا يُبَايِعُوهُمْ حَتَّى يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ³.

كما روى مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ نُنزَلُ عَدَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِحَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الْكُفْرِ⁴، ومعنى تقاسموا على الكفر تحالفوا وتعاهدوا عليه، وهو تحالفهم على إخراج النبي صلى الله عليه وسلم وبني هاشم وبني المطلب من مكة إلى هذا الشعب، وهو حيف بني كنانة، وكتبوا بينهم الصحيفة المشهورة، وكتبوا فيها أنواعا من الباطل وقطيعة الرحم والكفر، فأرسل الله تعالى عليها الأرضة فأكلت كل ما فيها من كفر وقطيعة رحم وباطل، وتركت ما فيها من ذكر الله تعالى، فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب فجاء إليهم أبو طالب فأخبرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فوجدوه كما أخبر⁵.

¹ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسير، ص 77-78

² - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 82-83

³ - صحيح البخاري: كتاب الحج، باب: نزول النبي مكة، رقم: 1487

⁴ - صحيح مسلم: كتاب الحج، باب: استحباب النزول بالخصب يوم النفر والصلاة به، رقم: 2315

⁵ - النووي أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط 1392، 2هـ، [ج 9/ 62]

خصائص ومميزات المرحلة المكية الرابعة [10-13] من البعثة

أولا/ظروف الدعوة في هذه المرحلة

أ/فقدان النبي -صلى الله عليه وسلم- الحماية بوفاة عمه: فإن موت عمه أفقده سندا كبيرا، فلم يعد بنو هاشم مستعدين بعده لتقديم نفس القدر من الحماية¹ له، فكان عليه أن يفكر في طرق ووسائل جديدة يضمن بها الحماية والاستمرار لدعوته.

ب/وصول الدعوة إلى طريق مسدود: في العام العاشر من البعثة، وصلت الدعوة إلى حد وفتت عنده، فقد استقر الوضع في مكة بين مستحيب ومعارض، وقرر النبي-صلى الله عليه وسلم- أن يحرك هذا الجمود فخرج إلى الطائف².

ج/عرض النبي-صلى الله عليه وسلم- نفسه على القبائل: كان النبي-صلى الله عليه وسلم- يستغل موسم الحج عندما تقبل القبائل إلى مكة ويعرض نفسه عليهم، ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعد موت أبي طالب قد خرج إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى نصره، فلما امتنعوا منه، رجع إلى مكة فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج، وذكر بأسانيد متفرقة أنه أتى كندة وبني كعب وبني حذيفة وبني عامر بن صعصعة وغيرهم، فلم يجبه أحد منهم إلى ما سأله، وقال موسى بن عقبة عن الزهري: (فكان في تلك السنين -أي التي قبل الهجرة - يعرض نفسه على القبائل، ويكلم كل شريف قوم، لا يسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه، ويقول: لا أكره أحدا منكم على شيء، بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلغ رسالة ربي، فلا يقبله أحد بل يقولون: قوم الرجل أعلم به)، وأخرج البيهقي وأحمد وصححه ابن حبان من حديث ربيعة بن عباد قال: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل)³، وروى الإمام أحمد عن جابر قال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ وبمجنة وفي المواسم يحى يقول من يؤؤيني من ينصرتني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر كذا قال فيأتيه قومه فيقولون احذر غلام قريش لا يفتنك ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع⁴، وكاد النبي صلى الله عليه وسلم أن يلقي الاستجابة من بعض القبائل، روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال قال النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول هل من رجل

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 184

² - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 278

³ - فتح الباري، ج 7، ص 260

⁴ - مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند جابر بن عبد الله، رقم: 13934

يَجْمَلُنِي إِلَى قَوْمِهِ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَعُونِي أَنْ أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ مِمَّنْ أَنْتَ فَقَالَ الرَّجُلُ مِنْ هَمْدَانَ قَالَ فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ قَالَ نَعَمْ ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ حَشِيَّ أَنْ يَحْقِرَهُ قَوْمُهُ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ آتِيهِمْ فَأُخْبِرُهُمْ ثُمَّ آتَيْكَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ قَالَ نَعَمْ فَاذْهَبْ وَجَاءَ وَفَدُ الْأَنْصَارِ فِي رَجَبٍ¹.

د/لجونه إلى الطائف: كانت الرحلة إلى الطائف على إثر اشتداد مقاومة قريش للدعوة عقب وفاة أبي طالب، فسعى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصره من ثقيف²، وذكر ابن سعد أن ذلك كان في شوال سنة عشر من المبعث وأنه كان بعد موت أبي طالب وخديجة، وأفاد ابن سعد أن مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بالطائف كانت عشرة أيام، وذلك لما وصلت الدعوة في مكة إلى طريق مسدود، والمسلمون موزعون بين الحبشة مشردين ومكة مضطهدين، دون أمل في تغير الواقع القائم، فكان لا بد من البحث عن مكان جديد تنطلق منه الدعوة، وكان أقرب المواقع لمكة ثقيف في الطائف³، وكان هدفه الأول دعوة ثقيف إلى الإسلام، والثاني طلب الحماية والنصرة، وكانت الحماية والنصرة السابقة بناء على عرض المشركين، وليست بناء على طلبه، فأبو طالب هو الذي وفر الحماية في هذه المرحلة، وهذه المرة الأولى التي يخرج فيها خارج مكة ويفكر في تغيير مركز الانطلاق، وإن كان قد هياً له مركزاً احتياطياً في الحبشة، غير أن الحبشة لا تصلح إلا عند الضرورة القاهرة، لأن الحبشة بعيدة عن الجو العربي، ولا بد أن تكون القاعدة الصلبة للانطلاق من قومه، ليتمكن قبولهم من بقية العرب، وثقيف لا تقل أصالة عن قريش في الحسب والنسب والمنعة، وهي الأنسب كبديل عن مكة⁴، وهذا دليل على التصميم الجازم على الاستمرار في دعوته وعدم اليأس من عدم استجابة الناس لها، وبحث عن ميدان جديد للدعوة بعد أن قامت الحواجز دونها في ميدانها الأول⁵.

ه/موقف أهل الطائف من الدعوة: كان موقف أهل الطائف محنة جديدة، جعلها النبي -صلى الله عليه وسلم- أشد من هزيمة أحد، روى البخاري: عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ قَالَ لَقَدْ لَقَيْتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقَيْتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقَيْتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَاذْهَبْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيْلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ

¹-مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: باقي المسند السابق، رقم: 14659

²- أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 184

³- منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 99

⁴- المصدر نفسه، ص 99-100

⁵- مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، ص 33

فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتِ إِنَّ شِئْتِ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَحْشَبِينَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَخَدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا¹.

وكان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف، وقد روى عبد بن حميد في تفسيره عن مجاهد في قوله
تعالى (على رجل من القرينتين عظيم)، قال نزلت في عتبة بن ربيعة وابن عبد ياليل الثقفي، وذكر موسى بن عقبة في
المغازي عن ابن شهاب أنه صلى الله عليه وسلم لما مات أبو طالب توجه إلى الطائف رجاء أن يؤوه، فعمد إلى ثلاثة نفر
من ثقيف وهم سادتهم وهم إخوة عبد ياليل وحبيب ومسعود بنو عمرو، فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم ما انتهك منه
قومه²، فردوا عليه أقبح رد، وقرن الثعالب على يوم وليلة من مكة³.

و/عودته إلى مكة في جوار المطعم بن عدي وإسلام : روى البخاري عن مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرِ لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ⁴، والسبب
في ذلك ما وقع منه حين رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي زعيم بني نوفل بن
عبد مناف، والقصة أوردتها الفاكهي بإسناد حسن مرسل، قال فيه (أن المطعم أمر أربعة من أولاده فلبسوا السلاح، وقام
كل واحد منهم عند ركن من الكعبة، فبلغ ذلك قريشا فقالوا له: أنت الرجل الذي لا تخفر ذمتك)، ومات المطعم بن
عدي قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون سنة، وذكر الفاكهي بإسناد مرسل أن حسان بن ثابت رثاه لما مات مجازاة له على
ما صنع للنبي صلى الله عليه وسلم⁵.

ثانيا: أحداث وفرائض هذه المرحلة

أ/إسلام الجن: عقد البخاري في صحيحه بابا قال فيه: بَابِ دِكْرِ الْجِنِّ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ
الْجِنِّ⁶.

وقصة استماع الجن للقرآن كان بمكة قبل الهجرة، وذكر ابن إسحاق أن استماع الجن كان بعد رجوع النبي
صلى الله عليه وسلم من الطائف لما خرج إليها يدعو ثقيفا إلى نصره، وذلك بعد موت أبي طالب، وكان ذلك في سنة
عشر من المبعث، كما جزم ابن سعد بأن خروجه إلى الطائف كان في شوال، وسوق عكاظ التي أشار إليها ابن عباس

¹ - صحيح البخاري: كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم: 3231

² -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص143

³ -فتح الباري، ج6، ص363

⁴ - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدرا، رقم: 3720

⁵ - فتح الباري، ج7، ص376

⁶ - صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: ذكر الجن

كانت تقام في ذي القعدة، وحديث ابن عباس صريح في ذلك، فكان على الراجح قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث فتكون القصة بعد الإسراء¹، قال البيهقي: حديث ابن عباس حكى ما وقع في أول الأمر عندما علم الجن بحاله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرههم، ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب منه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود، وأشار بذلك إلى ما أخرجه أحمد والحاكم من طريق زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: "هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخل، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، وكانوا سبعة أحدهم زوبعة"، وأخرج مسلم من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن علقمة قال: "قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب أحد منكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا فقدناه ذات ليلة فقلنا: اغتيل، استطير، فبتنا شر ليلة، فلما كان عند السحر إذا نحن به يجيء من قبل حراء فذكرنا له، فقال: أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم"، ثم إن الجن تعددت وفادتهم على النبي -ص-، ولما انتشرت الدعوة وأسلم من أسلم منهم، قدم منهم من قدم، فسمعوا وأسلموا وكان ذلك بين المهجرتين، ثم تعدد مجيئهم حتى في المدينة².

وروى البخاري عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين فقالوا ما لكم فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قال ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاريتها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاريتها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء قال فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن سمعوا له فقالوا هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهنايك رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمننا به ولكن نشارك برئنا أحداً وأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم فلأوحى إلي أنه استمع نفر من الجن وإنما أوحى إليه قول الجن³.

ب/رحلة الإسراء والمعراج

1/توقيت حادثة الإسراء والمعراج: اختلف في تحديد وقته على عشرة أقوال، القول الأول على أن المعراج كان قبل الهجرة بسنة ونقل عن ابن سعد وبه جزم النووي، وعن ابن الجوزي أنه كان قبلها بثمانية أشهر، وعن أبي الربيع بن سالم قبلها بستة، وعن إبراهيم الحربي أنها في ربيع الأول قبل الهجرة بسنة ورجحه ابن المنير، وعن ابن عبد البر أنها قبل الهجرة بسنة وشهرين، وعن ابن فارس أنها قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، وعن السدي والطبري والبيهقي قبلها بسنة وخمسة

¹ - فتح الباري، ج8، ص539

² - فتح الباري، ج7، ص209

³ - صحيح البخاري: كتاب: تفسير القرآن، باب: قال ابن عباس بلدا أعوانا، رقم: 4540

أشهر، وقال بن حزم كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة، وعن ابن قتيبة وابن عبد البر أنها كانت قبلها بثمانية عشر شهرا، وعن ابن سعد في رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا، وقيل في رجب كما عند ابن عبد البر وحزم به النووي، وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين عن ابن عبد البر¹.

2/ قصة الإسراء والمعراج في القرآن وصحيح السنة: وردت قصة الإسراء في القرآن الكريم في قول الله تعالى سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى².

وجاءت رحلة الإسراء والمعراج مفصلة في صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به بينما أنا في الحطيم ورمما قال في الحجر مضطجعا إذ أتاني آت فقد قال وسمعتة يقول فشق ما بين هذه إلى هذه فقلت للجارود وهو إلى جنبي ما يعني به قال من ثغرة نخره إلى شعرته وسمعتة يقول من قصه إلى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبي ثم حشيت ثم أعيدت ثم أتيت بدابة دون البعل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود هو البراق يا أبا حمزة قال أنس نعم يصع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فأنطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعيم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعيم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعيم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يوسف قال هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فردا ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به فنعيم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا هارون قال هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فردا ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل من معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قال مرحبا به فنعيم المجيء جاء فلما خلصت فإذا موسى قال هذا موسى

¹ فتح الباري، ج7، ص242-243

² صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: حديث الإسراء، رقم: 3886

فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدُّ ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ فَلَمَّا بَحَاوَزْتُ بَكَى قِيلَ لَهُ مَا يُبْكِيكَ قَالَ أَبْكِي لِأَنَّ عَلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيْلُ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيْلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ مَرْحَبًا بِهِ فَنِعِمَّ الْمَجِيءُ جَاءَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ هَذَا أَبُوكَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ قَالَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ قَالَ مَرْحَبًا بِالْإِبْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبُفْهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ وَإِذَا وَرْفُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفَيْلَةِ قَالَ هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ فَعُلْتُ مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيْلُ قَالَ أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنَّبِيُّ وَالْقُرْآنُ ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ ثُمَّ أُتِيْتُ بِإِنَاءٍ مِنْ حَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ بِمَا أُمِرْتُ قَالَ أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَاجَلْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَاجَلَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ بِمَ أُمِرْتَ قُلْتُ أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَاجَلْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَاجَلَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ قَالَ سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ قَالَ فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّيْتُ عَنْ عِبَادِي¹.

وقد ورد في عدة روايات مختلفة، والجمع بين هذه الأقوال أنه نام في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته -وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه- فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد فكان به مضطجعا وبه أثر النعاس، ثم أخرجه الملك إلى باب المسجد فأركبه البراق، وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضا عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، ولكل منها حكمة، فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس (فأخرج علقمة فقال: هذا حظ الشيطان منك)، وكان هذا في زمن الطفولية فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة، ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه صلى الله عليه وسلم، وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصفه عن حقيقته لصلاحيته

¹- صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: المعراج، رقم: 3887

القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك، قال القرطبي في المفهم: لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء لأن رواته ثقات مشاهير، وقد اشتملت هذه القصة من حوارق العادة على ما يدهش سامعه فضلا عما شاهدته، فقد جرت العادة بأن من شق بطنه وأخرج قلبه يموت لا محالة، ومع ذلك فلم يؤثر فيه ذلك ضررا ولا وجعا فضلا عن غير ذلك، قال ابن أبي جمرة: الحكمة في شق قلبه -مع القدرة على أن يمتلئ إيمانا وحكمة بغير شق- الزيادة في قوة اليقين، لأنه أعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثيره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان أشجع الناس وأعلاهم حالا ومقالا، والحكمة في الإسراء به راكبا مع القدرة على طي الأرض له إشارة إلى أن ذلك وقع تأنيسا له بالعادة في مقام خرق العادة، لأن العادة جرت بأن الملك إذا استدعى من يختص به يبعث إليه بما يركبه، والبراق مشتق من البريق، فقد جاء في لونه أنه أبيض، أو من البرق لأنه وصفه بسرعة السير، أو من قولهم شاة برفاء إذا كان خلال صوفها الأبيض طاقات سود، ولا ينافيه وصفه في الحديث بأن البراق أبيض لأن البرقاء من الغنم معدودة في البياض، وركوب البراق كان زيادة له في تشريفه لأنه لو صعد بنفسه لكان في صورة ماش، والراكب أعز من الماشي، وللنسائي وابن مردويه عن أنس (وكانت تسخر للأنبياء قبله)، وفيه دلالة على أن البراق كان معدا لركوب الأنبياء، قال النووي قال الزبيدي في مختصر العيني وصاحب التحرير: كان الأنبياء يركبون البراق، وفي كتاب مكة للفاكهي والأزرقي (أن إبراهيم كان يحج على البراق)، وفي أوائل الروض للسهيلي (أن إبراهيم حمل هاجر على البراق لما سار إلى مكة بها وبولدها)، فهذه آثار يشد بعضها بعضا، وفي رواية ابن إسحاق (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج فلم أر قط شيئا كان أحسن منه، وهو الذي يمد إليه الميت عينيه إذا حضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء)، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي (حتى أتيت بيت المقدس فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها -وفيه- فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين)، وفي رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه (ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكن وساجد، ثم أقيمت الصلاة فأمتهم)، وفي رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس عند ابن أبي حاتم (فلم ألبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفًا ننتظر من يؤمننا، فأخذ بيدي جبريل فقدمني فصليت بهم)، وفي حديث ابن مسعود عند مسلم (وحانت الصلاة فأمتهم)، قال عياض يحتمل أن يكون صلى بالأنبياء جميعا في بيت المقدس، ثم صعد منهم إلى السماوات من ذكر أنه صلى الله عليه وسلم رآه، ويحتمل أن تكون صلاته بهم بعد أن هبط من السماء فهبطوا أيضا، والأظهر أن صلاته بهم ببيت المقدس كان قبل العروج، وقد توافقت هذه الرواية مع رواية ثابت عن أنس عند مسلم أن في الأولى آدم وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم، وقد اختلف في الحكمة في اختصاص كل منهم بالسماء التي التقاه بها، فليلي يظهر تفاضلهم في الدرجات، وقيل: الحكمة في الاقتصار على هؤلاء المذكورين للإشارة إلى ما سيقع له صلى الله عليه وسلم مع قومه من نظير ما وقع

لكل منهم، وفي حديث أبي سعيد: فأقبلت راجعا، فمررت بموسى ونعم الصحاب كان لكم، فسألني: كم فرض عليك ربك؟، وقال القرطبي: الحكمة في تخصيص موسى بمراجعة النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الصلاة لعلها لكون أمة موسى كلفت من الصلوات بما لم تكلف به غيرها من الأمم فثقلت عليهم، فأشفق موسى على أمة محمد من مثل ذلك، قوله: (ثم رفعت إلى سدرة المنتهى)، ووقع بيان سبب تسميتها سدرة المنتهى في حديث ابن مسعود عند مسلم ولفظه (لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم قال: انتهى بي إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط فيقبض منها)، وقال النووي سميت سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال القرطبي في المفهم: ظاهر حديث أنس أنها في السابعة، قال: وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله أو من أعلمه، (فإذا نبقتها) والنبق هو ثمر السدر، (مثل قلال هجر) قال الخطابي: القلال جمع قلة هي الجرار، يريد أن ثمرها في الكبر مثل القلال، قال ابن دحية: اختيرت السدرة دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل ممدود، وطعام لذيذ، ورائحة زكية، عن أنس قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (رفعت لي سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار)، وقيل: وإنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيها لها بأنهار الجنة لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة، (ثم رفع لي البيت المعمور) زاد الكشميهني (يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم)، (ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها) أي دين الإسلام، قال القرطبي يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لأنه أول شيء يدخل بطن المولود ويشق أمعاءه، والسر في ميل النبي صلى الله عليه وسلم إليه دون غيره لكونه كان مألوفاً له، ولأنه لا ينشأ عن جنسه مفسدة، ووقع عرض الآنية مرتين: مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس وسببه ما وقع له من العطش، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى، (ثم فرضت علي الصلاة) والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه صلى الله عليه وسلم لما عرج به رأى في تلك الليلة تعبد الملائكة وأن منهم القائم فلا يقعد والراکع فلا يسجد والساجد فلا يقعد، فجمع الله له ولأمته تلك العبادات كلها في كل ركعة يصلحها العبد، بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، وفي اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إشارة إلى عظيم بيانها، ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة بل بمراجعات تعددت، قوله: (ولكن أرضى وأسلم) تقدير الكلام: سألت ربي حتى استحيت فلا أرجع، فإني إن رجعت صرت غير راض ولا مسلم، ولكني أرضى وأسلم، (فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي) هذا من أقوى ما استدل به على أن الله سبحانه وتعالى كلم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بغير واسطة، وفي رواية أبي ذر من الزيادة أيضاً (ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا تراها المسك)، وعند مسلم عن أنس رفعه (بيننا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر الجوف، وإذا طينه مسك أذفر، فقال جبريل: هذا الكوثر)، وفي حديث ابن مسعود عند مسلم (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ما لي لم آت أهل سماء إلا رحبوا وضحكوا إلي، غير رجل واحد فسلمت عليه فرد علي السلام

ورحب بي ولم يضحك إلي؟ قال: يا محمد ذاك مالك خازن جهنم، لم يضحك منذ خلق، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك)، وفي حديث حذيفة عند أحمد والترمذي (حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار، ووعد الآخرة أجمع)، وفي حديث أبي سعيد (أنه عرض عليه الجنة، وإذا رمانها كأنه الدلاء، وإذا طيرها كأنها البخت، وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها)¹.

واشتملت الرحلة على معان عميقة دقيقة كثيرة، منها أنه صلى الله عليه وسلم- نبي القبلتين وإمام المشرقين والمغربين ووارث الأنبياء، وإمام الأجيال بعده، وصلى جميع الأنبياء خلفه، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه وصلاحياتها لاختلاف المكان والزمان².

3/ موقف قريش من حادثة الإسراء والمعراج: روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبني قريش فمتمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفت أحرهم عن آياته وأنا أنظر إليه³، وروى البيهقي في الدلائل: من طريق صالح بن كيسان عن الزهري عن أبي سلمة قال (افتتن ناس كثير - يعني عقب الإسراء - فجاء ناس إلى أبي بكر فذكروا له فقال: أشهد أنه صادق، فقالوا: وتصدقه بأنه أتى الشام في ليلة واحدة ثم رجع إلى مكة؟ قال نعم، إني أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء قال فسمي بذلك الصديق)، وفي حديث ابن عباس عند أحمد والبخاري بإسناد حسن قال (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة مر بي عدو الله أبو جهل فقال: هل كان من شيء؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس، قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم، قال فإن دعوت قومك أتحدثهم بذلك؟ قال: نعم، قال: يا معشر بني كعب بن لؤي، قال فانفضت إليه المجالس حتى جاءوا إليهما فقال: حدث قومك بما حدثني فحدثتهم، قال فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً، قالوا وتستطيع أن تنعت لنا المسجد)، ووقع في حديث شداد بن أوس عند البخاري والطبراني أنه (أنه مر في رجوعه بعير لقريش فسلم عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد، وفيه أنه أعلمهم بذلك وأن غيرهم تقدم في يوم كذا، فقدمت الظهر يقدمهم الجمل الذي وصفه)، قوله: (فجلى الله لي بيت المقدس) قيل معناه كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته، ووقع في رواية عبد الله بن الفضل عن أم سلمة عند مسلم: (قال فسألوني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كرباً لم أكره مثله قط، فرفع الله لي بيت المقدس أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا نبأهم به)، وفي حديث ابن عباس المذكور (فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار عقيل فنته وأنا أنظر إليه) وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين لسليمان، وهو

¹- فتح الباري، ج7، ص242-257

²- سعيد حوى: الأساس في السنة، ص292

³- صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: حديث الإسراء، رقم: 3886

يقتضي أنه أزيل من مكانه حتى أحضر إليه، وما ذاك في قدرة الله بعزير، ووقع حديث شداد بن أوس عند البزار والطبراني ما يؤيد الاحتمال الأول ففيه (ثم مررت بعير لقريش، فذكر القصة)، وفي حديث أم هانئ أيضا أنهم (قالوا له كم للمسجد باب؟ قال: ولم أكن عدتها، فجعلت أنظر إليه وأعدّها بابا بابا)، وفيه عند أبي يعلى أن الذي سأله عن صفة بيت المقدس هو المطعم بن عدي والد جبير بن مطعم، وفيه من الزيادة (فقال رجل من القوم: هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم والله، قد وجدتم قد أضلوا بعيرا لهم فهم في طلبه، ومررت بإبل بني فلان انكسرت لهم ناقة حمراء، قالوا فأخبرنا عن عدتها وما فيها من الرعاة، قال: كنت عن عدتها مشغولا، فقام فأتى الإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاء ثم أتى قريشا فقال: هي كذا وكذا، وفيها من الرعاء فلان وفلان، فكان كما قال)، قال الشيخ أبو محمد بن أبي حمزة: الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء إرادة إظهار الحق لمعادنة من يريد إخماده، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعادنة الأعداء سبيلا إلى البيان والإيضاح، فلما ذكر أنه أسري به إلى بيت المقدس سأله عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رأها قبل ذلك، فلما أخبرهم بما حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة، وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره، فكان ذلك زيادة في إيمان المؤمن، وزيادة في شقاء الجاحد والمعاند¹.

ج/فرض الصلوات الخمس روى البخاري: عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ حِينَ فَرَضَهَا رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ فَأُفِّرَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ²، زاد ابن إسحاق إلا المغرب فإنها كانت ثلاثا، وللبخاري في كتاب الهجرة عن عائشة قالت (فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ففرضت أربعاً)، فعين في هذه الرواية أن الزيادة في قوله هنا (وزيد في صلاة الحضر) وقعت بالمدينة، والذي يظهر وبه تجتمع الأدلة السابقة، أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب³.

ثالثا: مقدمات الهجرة

أ/لقاءه وفد الأوس: قدم وفد الأوس إلى مكة باحثين عن تحالفات ضد الخزرج⁴، وهؤلاء أول من طرق الإسلام سمعهم وأسلم فرد واحد منهم، وهو في المغازي مختلف في إسلامه واسمه سويد بن الصامت⁵، فقد ذكر ابن إسحاق أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تلقاه الأنصار في العقبة، فعرض عليه الإسلام فقال: إن هذا القول حسن، وانصرف إلى

¹ -فتح الباري، ج7، ص239-241

² - صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب: كيف فرضت الصلوات في الإسراء، رقم: 350

³ -فتح الباري: ج1، ص553-554

⁴ - سعيده حوى: الأساس في السنة، ص288

⁵ -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص145

المدينة فقتل بها في وقعة بعاث وكانت قبل المحجرة، قال فكان قومه يقولون: لقد قتل وهو مسلم¹، ثم جاء وفد معتمرين في رجب، فاجتمع بهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعرض عليهم الدعوة فأسلموا ثم رجعوا إلى قومهم فدعوهم فاستجاب لهم عدد² منهم.

ب/لقاؤه وفد الخزرج: وفي السنة الحادي عشر من البعثة التقى بوفد من الأنصار يتكون ستة أفراد، فدعاهم للإسلام فأسلموا، وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن عن ابن عباس (حدثني علي بن أبي طالب قال: لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا منه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، وتقدم أبو بكر وكان نسابة فقال: من القوم؟ فقالوا: من ربيعة، فقال من أي ربيعة أنتم؟ قالوا: من ذهل، ذكروا حديثا طويلا في مراجعتهم وتوقفهم أخيرا عن الإجابة، قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، وهم الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونصره، قال: فما نهضوا حتى بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم)، قال ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قال لما رأهم النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أنتم؟ قالوا من الخزرج، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: نعم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبينا سبيعت الآن قد أظل زمانه نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم³، فلما كلمهم النبي صلى الله عليه وسلم عرفوا النعت، فقال بعضهم لبعض: لا تسبقنا إليه يهود فآمنوا وصدقوا، وانصرفوا إلى بلادهم ليدعوا قومهم، فلما أخبروهم لم يبق دور من قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان الموسم وافاه منهم اثنا عشر رجلا⁴.

وقاموا بدورهم في الدعوة في صفوف الأوس والخزرج حتى فشا الإسلام في المدينة⁵، روى الإمام أحمد عن جابر قال مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةٍ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمَيِّ يَقُولُ مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ أَوْ مِنْ مُضَرَ كَذَا قَالَ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ احْدَرْ عَلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ وَمَشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ حَتَّى بَعَثْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مَنْ يَشْرِبُ فَأَوْيِنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مَنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرئُهُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيَسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ

¹ فتح الباري، ج1، ص120، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص145

² -سعيد حوى: الأساس في السنة، ص214

³ -الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص147

⁴ -فتح الباري، ج7، ص261

⁵ -منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص114

إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ¹، فهؤلاء الستة أحدثوا منعطف جديد في الدعوة، بعد جهاد مضمّن وصبر طويل، تحقق على يد هؤلاء النفر الستة، حين وجدوا المناخ المناسب والجو الملائم للدعوة الجديدة².

ج/بيعة العقبة الأولى: ذكر ابن إسحاق أن أهل العقبة الأولى كانوا ستة نفر وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة النجاري ورافع ابن مالك بن العجلان العجلاني وقطبة بن عامر بن حديدة وجابر بن عبد الله بن رثاب، وعقبة بن عامر، وهؤلاء الثلاثة من بني سلمة، وعوف بن الحارث بن رفاعة من بني مالك بن النجار، وقال موسى بن عقبة عن الزهري وأبو الأسود عن عروة: هم أسعد بن زرارة ورافع بن مالك ومعاذ بن عفراء ويزيد بن ثعلبة وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة، ويقال كان فيهم عبادة بن الصامت وذكوان³.

وروى البخاري عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ شَهِدًا بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النَّبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ⁴.

حديث عبادة هذا كان بمكة ليلة العقبة لما بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعة الأولى بمكة، وكان ليلة العقبة ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن حضر من الأنصار (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) فبايعوه على ذلك، وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه، ومن حديث عبادة أيضا قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وقد وضع أن هذا هو الذي وقع في البيعة الأولى، وهي قبل الهجرة إلى المدينة، ونظيره ما أخرجه أحمد من طريق محمد بن إسحاق عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده - وكان أحد النقباء - قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب، وكان عبادة من الإثني عشر الذين بايعوا في العقبة الأولى (على بيعة النساء وعلى السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا)، وقد صرح أنها كانت قبل أن يفرض الحرب في رواية الصنابحي عن عبادة عند أحمد⁵، وذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل مصعبا مع أهل العقبة يعلمهم⁶، فكان الممثل الشخصي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم

¹ - مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند جابر بن عبد الله، رقم: 13934

² - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 114

³ - فتح الباري، ج 7، ص 261

⁴ - صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب: علامة الإيمان حب الأنصار، رقم: 17

⁵ - فتح الباري: 1، ص 84

⁶ - المصدر نفسه، ج 7، ص 306

وسلم-، ليشرف بنفسه على تطور الموقف، واستطاع أن يكسب للإسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ¹، ثم عاد قبل حلول موسم الحج التالي ليبلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما حدث ويهيئ لبيعة العقبة الثانية²، وكان دخول الإسلام إلى المدينة على مدار ثلاث سنين قبل الهجرة، وفشا الإسلام في المدينة حتى سيطر³، فكان انتشار الإسلام في المدينة أكثر بكثير من انتشاره في مكة خلال عشرة أعوام⁴.

د/بيعة العقبة الثانية: في مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال... ثُمَّ اثْتَمَرُوا جَمِيعًا فُقُلْنَا حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَوَاعَدَنَاهُ شَعْبَ الْعُقَبَةِ فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا فُقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُبَايِعُكَ قَالَ تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنَّةُ قَالَ فُقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعَنَاهُ وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ فَقَالَ زُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنَّ تَعْصَمَ السُّيُوفُ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ حَبِيبَةً فَبَيَّنُّوا ذَلِكَ فَهُوَ عُذْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ قَالُوا أَمْطَ عَنَّا يَا أَسْعَدُ فَوَاللَّهِ لَا نَدْعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا قَالَ فُقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعَنَاهُ فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ⁵، فكان مضمون ومحتوى البيعة⁶ على الطاعة والنصرة والحرب، ولذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب⁷، فكانت البيعة هذه المرة على التبعة المسلحة⁸، وقد أنزل الله تعالى في أهل هذه البيعة قوله: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعِّكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ]⁹، قال ابن كثير: قالوا: ربح البيع لا تقيل ولا نستقيل، عندما اشترط لهم الجنة، فنزلت: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ]، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم¹⁰.

¹ منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص115

² سعيد حوى: الأساس في السنة، ص288

³ سعيد حوى: الأساس في السنة، ص214

⁴ منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص114

⁵ مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند المكتبرين، باب: مسند جابر بن عبد الله، رقم: 13934، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص151-152

⁶ راجع أسماء من حضر هذه البيعة في: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص156-157

⁷ أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص199

⁸ منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص117

⁹ سورة التوبة الآية 111

¹⁰ ابن كثير: تفسير ابن كثير، ج3، ص295

1/أوائل المهاجرين إلى المدينة: تتفق الروايات¹ على أن أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي زوج أم سلمة أول من هاجر إلى المدينة قبل العقبة الثانية²، وذلك أنه أودي لما رجع من الحبشة، فعزم على الرجوع إليها، فبلغه قصة الاثني عشر من الأنصار فتوجه إلى المدينة، ذكر ذلك ابن إسحاق، وأسند عن أم سلمة أن أبا سلمة أخذها معه فردها قومها فحبسوها سنة، ثم انطلقت فتوجهت في قصة طويلة وفيها "فقدم أبو سلمة المدينة بكرة، وقدم بعده عامر بن ربيعة حليف بني عدي عشية"، ثم هاجر بين العقبتين جماعة منهم ابن أم مكتوم، ثم توجه مصعب بن عمير ليفقه من أسلم من الأنصار، ثم كان أول من هاجر بعد بيعة العقبة عامر بن ربيعة حليف بني عدي على ما ذكر ابن إسحاق، ثم توجه باقي الصحابة شيئاً فشيئاً، ثم لما توجه النبي صلى الله عليه وسلم واستقر بها خرج من بقي من المسلمين، وكان المشركون ينعون من قدروا على منعه منهم، فكان أكثرهم يخرج سرا إلى أن لم يبق منهم بمكة إلا من غلب على أمره من المستضعفين³.

وقيل أول من قدم المدينة من المهاجرين عامر بن ربيعة ومعه امرأته⁴ أم عبد الله بنت أبي حثمة، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وشماس بن عثمان بن الشريد، وعبد الله بن جحش⁵، وقد روى البخاري قصة أول المهاجرين إلى المدينة من الصحابة، وكان أكثرهم عدداً من خرج رفقة عمر بن الخطاب، والحديث رواه البراء بن عازب رضي الله عنهما قال أول من قدم علينا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَا يُقْرَبَانِ النَّاسَ فَقَدِمَ بِلَالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرِحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى جَعَلَ الْإِمَاءُ يَقْلَنَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى فِي سُورٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ⁶.

قال ابن حجر: في رواية عبد الله بن رجاء (في عشرين راكباً)، وقد سمي ابن إسحاق منهم زيد بن الخطاب وسعيد بن زيد بن عمرو وعمرو بن سراقه وأخاه عبد الله وواقد بن عبد الله وخالدا وإياسا وعامرا وعاقلا بني البكير وخنيس بن حذافة وعياش بن ربيعة وحولي بن أبي حولي وأخاه، هؤلاء كلهم من أقارب عمر وخلفائهم، قالوا: فنزلوا جميعاً على رفاعة بن عبد المنذر بقباء، وروى ابن عائذ في المغازي بإسناد له عن ابن عباس قال: خرج عمر والزبير وطلحة وعثمان وعياش بن ربيعة في طائفة، فتوجه عثمان وطلحة إلى الشام، فهؤلاء ثلاثة عشر من ذكر ابن إسحاق،

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 202

² - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 158

³ - فتح الباري، ج 7، ص 268

⁴ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 159

⁵ - فتح الباري، ج 7، ص 306

⁶ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مقدم النبي - صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة، رقم: 3924

وذكر موسى بن عقبة أن أكثر المهاجرين نزلوا على بني عمرو بن عوف بقباء إلا عبد الرحمن بن عوف فإنه نزل على سعد بن الربيع وهو خزرجي، وأن سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة كان يؤم المهاجرين الأولين في مسجد بقاء، منهم أبو سلمة بن عبد الأسد، وروى الحاكم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: (وزعموا أن من آخر من قدم سعد بن أبي وقاص في عشرة فنزلوا على سعد بن خيشمة)¹.

11/ موقف قريش من هجرة المسلمين

سعت قريش بشتى الطرق لعرقلة الهجرة، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين، مرة بحجز أموالهم ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم²، كما روي عن أم سلمة أن أبا سلمة أخذها معه فردها قومها³ فحبسوها سنة⁴، ولما لم يجدي هذا الأسلوب نفعا في صد المهاجرين عن قصدهم، جعلت لمن يخرج مهاجرا أن يعطيهم عهدا بأن لا يقالتهم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، روى ذلك الإمام مسلم من حديث حذيفة بن اليمان قال ما منعتني أن أشهد بدرا إلا أتي خرجت أنا وأبي حسيل قال فأخذنا كفاؤ قريش قالوا إنكم تريدون محمدا فقلنا ما نريد ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لئنصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر فقال انصرفا نفي هم بعهدهم ونستعين الله عليهم⁵.

المحور الثالث: الفقه الحركي للسير المدنية [1-11هـ]

خصائص ومميزات المرحلة المدنية الأولى [1-2هـ]

أ/ انتصار الإسلام في المدينة

1/ أسباب قبول أهل المدينة للإسلام: روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت كان يوم بعثت يوما قدمه الله لرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ افترق ملوهم وقتلت سرواتهم وجرخوا قدمه الله لرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ⁶، وبعثت مكان- ويقال حصن وقيل مزرعة- عند بني قريظة على

¹ فتح الباري، ج7، ص307

² أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص202

³ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص159

⁴ فتح الباري، ج7، ص268

⁵ صحيح مسلم: كتاب: الجهاد والسير، باب: الوفاء بالعهد، رقم: 3342

⁶ صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: مناقب الأنصار، رقم: 3777

ميلين من المدينة، كانت به وقعه بين الأوس والخزرج، فقتل فيها كثير منهم، وكان رئيس الأوس فيه حضير والد أسيد بن حضير وكان يقال له حضير الكتائب وبه قتل، وكان رئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي فقتل فيها أيضا، وكان النصر فيها أولا للخزرج ثم ثبتهم حضير فرجعوا وانتصرت الأوس وجرح حضير يومئذ فمات فيها، وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن سبب ذلك أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالحليف، فقتل رجل من الأوس حليفا للخزرج، فأرادوا أن يقيدوه فامتنعوا، فوقعت عليهم الحرب لأجل ذلك، فقتل فيها من أكابريهم من كان لا يؤمن، أي يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أبي ابن سلول، وقتل في هذه الحرب قادتهم وخيارهم¹، وقد روى ابن سعد بأسانيده أن النفر الستة أو الثمانية الذين لقوا النبي صلى الله عليه وسلم بمنى أول من لقيه من الأنصار - وكانوا قد قدموا إلى مكة ليحالفوا قريشا - كان في جملة ما قالوه له لما دعاهم إلى الإسلام والنصر له: واعلم إنما كانت وقعة بعاث عام الأول، فموعدك الموسم القابل، فقدموا في السنة التي تليها فبايعوه، وهي البيعة الأولى، ثم قدموا الثانية فبايعوه وهم سبعون نفسا، وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم في أوائل التي تليها، فدل ذلك على أن وقعة بعاث كانت قبل الهجرة بثلاث سنين، وهو المعتمد²، وقيل كان ذلك قبل الهجرة بخمس سنين وقيل: بأربع وقيل: بأكثر والأول أصح³.

وقيل بأن الحرب دامت مائة وعشرين سنة بين الحيين الأوس والخزرج، في أيام كثيرة شهيرة، وكان أولها فيما ذكر ابن إسحاق وهشام بن الكلبي وغيرهما أن الأوس والخزرج لما نزلوا المدينة وجدوا اليهود مستوطنين بها فحالفوهم وكانوا تحت قهرهم، ثم غلبوا على اليهود في قصة طويلة بمساعدة أبي جبله ملك غسان، فلم يزالوا على اتفاق بينهم حتى كانت أول حرب وقعت بينهم حرب سمير، بسبب رجل يقال له كعب من بني ثعلبة نزل على مالك ابن عجلان الخزرجي فحالفه، فقتله رجل من الأوس يقال له سمير فكان ذلك سبب الحرب بين الحيين، ثم كانت بينهم وقائع من أشهرها يوم السرارة، ويوم فارع، ويوم الفجار الأول والثاني، وحرب حصين بن الأسلت، وحرب حاطب بن قيس، إلى أن كان آخر ذلك يوم بعاث⁴.

بالإضافة إلى الحروب الداخلية التي أنهكتها معا، هناك أسباب أخرى تضاف إلى ما سبق، منها ما طبعهم الله عليه من الرقة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، ورغبتهم في الاجتماع ولم الشمل، بعد الفرقة التي مزقت

¹ فتح الباري، ج7، ص138-139

² فتح الباري، ج2، ص512

³ فتح الباري، ج7، ص138-139

⁴ فتح الباري، ج2، ص512

مجمعهم، ومنها مخالطتهم لأهل الكتاب من اليهود وما كانوا يسمعون منهم وهم يتحدثون عن النبوة والأنبياء، بل أنهم كانوا يتوعدونهم عند الاختلاف بنبوته¹.

11/ هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

1/ أسباب الهجرة

* / البحث عن قاعدة حرة وآمنة للدعوة الجديدة: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يعرض نفسه على القبائل²، يبحث عن قاعدة أخرى غير مكة، تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح لها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بجرية الدعوة وحماية الأتباع من الاضطهاد والفتنة، وهو السبب الأهم للهجرة³.

* / موقع المدينة وسكانها المناسبين للدعوة: وذلك أنها امتازت بتحصن طبيعي حربي، لا تراحمها في ذلك مدينة في الجزيرة، فكانت حرة الوبرة مطبقة على المدينة من الناحية الغربية، وحررة واقم من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشمالية هي الوحيدة المكشوفة، وهي التي حصنها بالخندق سنة 5هـ، وكانت الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري وترتيب الصفوف، وكذلك سكانها كانوا أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة وشكيمة، ألفوا الحرية ولم يخضعوا لأحد، فكانت مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، واتخاذهم لها دارا وقرارا، حتى يقوى الإسلام⁴ ويتقدم.

* / خطة قريش لقتل النبي - صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة: تحدث القرآن الكريم عن مؤامرة قريش في دار الندوة ليلة الهجرة في قوله تعالى (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَأْكُرِينَ)⁵، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس في سبب نزولها، قَالَ تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةَ بَمَكَّةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَتَاقِ يُرِيدُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ أَخْرِجُوهُ فَأَطْلَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

¹ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 315-316

² - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 142

³ - منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة، ص 15

⁴ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص 332

⁵ - سورة الأنفال، الآية (30)

نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ فَبَاتَ عَلَيَّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى لَحِقَ بِالْعَارِ¹ ...

واجتماع قريش على هذا الائتثار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة، وكان بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين، لما تمكنوا منها واجتروا عليه بسبب موته، وهو الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه².

2/ الاستعداد للهجرة: روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لم أعقلن أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طريئ النهار بكرة وعشيته... والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين إني أريث دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فإني أرحو أن يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بإبي أنت قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمير وهو الحبط أربعة أشهر³...، وفيه بيان المدة التي كانت بين ابتداء هجرة الصحابة بين العقبة الأولى والثانية وبين هجرته صلى الله عليه وسلم، وبين العقبة الثانية وبين هجرته صلى الله عليه وسلم شهرين وبعض شهر⁴.

3/ تاريخ الهجرة النبوية إلى المدينة: أما عن هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- فجاء عن ابن عباس أنه أذن له في الهجرة إلى المدينة بقوله تعالى: (وقل رب أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)، وذكر الحاكم أن خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة كان بعد بيعة العقبة بثلاثة أشهر أو قريبا منها، وحزم ابن إسحاق بأنه خرج أول يوم من ربيع الأول، فعلى هذا يكون بعد البيعة بشهرين وبضعة عشر يوما، وكذا جزم به الأموي في المغازي عن ابن إسحاق فقال: كان مخرجه من مكة بعد العقبة بشهرين وليال، قال وخرج للال ربيع الأول وقدم المدينة لاثني عشرة خلعت من ربيع الأول، وعلى هذا خرج يوم الخميس، ورافقه من أصحابه في هجرته أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة⁵.

4/ أحداث يوم الهجرة

¹-مسند الإمام أحمد: كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: باقي المسند السابق، رقم: 3081

²-ابن كثير: تفسير ابن كثير، ج3، ص199

³- صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3905

⁴-فتح الباري، ج7، ص276-277

⁵-فتح الباري، ج7، ص268

* /نوم علي في فراش النبي-صلى الله عليه وسلم-: ذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: "فرقد علي على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يوري عنه، وباتت قريش تختلف وتأتّمر أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه، حتى أصبحوا فإذا هم بعلي، فسألوه، فقال: لا علم لي فعلموا أنه فر منهم"، وذكر ابن إسحاق "أن جبريل أمره لا يبيت على فراشه، فدعا عليا فأمره أن يبيت على فراشه ويسجي ببرده الأخضر ففعل، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم على القوم ومعه حفنة من تراب، فجعل يثرها على رءوسهم وهو يقرأ يس إلى: (فهم لا يبصرون)، وذكر موسى بن عقبة عن الزهري قال: (وبات علي على فراش النبي صلى الله عليه وسلم يوري عنه، وباتت قريش يختلفون ويأتّمرون أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه، فلما أصبحوا إذا هم بعلي،... فخرجوا في كل وجه يطلبونه)، وذكر الواقدي أن قريشا بعثوا في أثرهما قاتنين: أحدهما كرز بن علقمة، فرأى كرز بن علقمة على الغار نسح العنكبوت فقال: هاهنا انقطع الأثر¹.

* /خروجهما إلى غار ثور: روى الإمام أحمد عن ابن عباس بإسناد حسن، قال تشاورت قريش لئلا يمكّة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبثوه بالوثاق يريدون النبي صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم بل اقتلوه وقال بعضهم بل أخرجه فاطلع الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فبات علي على فراش النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وخرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا ردّ الله مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا قال لا أدري فافتصموا أثره فلما بلغوا الجبل خلطوا عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا علي بابيه نسح العنكبوت فقالوا لو دخل هاهنا لم يكن نسح العنكبوت على بابيه فمكث فيه ثلاث ليال².

وكان مكث النبي-صلى الله عليه وسلم- في الغار تلك المدة، ليتوارى عن الطلب لأن قريش أعلنت دية لمن يأتي به أو يخبره، روى الإمام البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت... قال النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامته من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فإني أرحو أن يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بإبي أنت قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمير وهو الخبط أربعة أشهر قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متفنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمة قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي صلى الله عليه

¹ - فتح الباري، ج7، ص278-279

² - مسند الإمام أحمد: كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: باقي المسند السابق، رقم: 3081

وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ أَخْرَجَ مَنْ عِنْدَكَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَمْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيْ هَاتَيْنِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالثَّمَنِ قَالَتْ عَائِشَةُ فَحَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَارِ وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ فَقَطَعْتَ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطْتُ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ فَبَدَلِكَ سُمِّيتَ ذَاتَ النَّطَاقَيْنِ قَالَتْ ثُمَّ حَقَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ بَعَارٍ فِي جَبَلٍ ثَوْرٍ فَكَمْنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ تَقِفُ لَيْلٌ فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسِحْرِ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرٍ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ وَيَرَعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْ عَمِّ قُرَيْشٍ فَعَلِمَا حِينَ تَدَهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رَسَلٍ وَهُوَ لَبَنٌ مَنْحَتُهُمَا وَرَضِيفُهُمَا حَتَّى يَنْعَقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بَعْلَسٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ¹ ...

* /الهجرة عبر طريق الساحل: روى الإمام البخاري حديث الهجرة بطوله عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ... وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيِّ هَادِيًا خَرِيئًا وَالْحُرَيْثُ الْمَاهِرُ بِالْهُدَايَةِ قَدْ عَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلِ السَّهْمِيِّ وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ فَأَمَانَهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ عَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالِدَيْهِ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاخِلِ².

* /لحوق سراقه بن مالك بالنبى- صلى الله عليه وسلم- في طريق الهجرة: قال البخاري: قَالَ ابْنُ شَهَابٍ وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكِ الْمُدَلِّجِيُّ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سَرَاقَةَ بْنَ جُعْشَمٍ يَقُولُ جَاءَنَا رَسُولُ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسْرَهُ فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدَلِّجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَخَرُّ جُلُوسٌ فَقَالَ يَا سَرَاقَةُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْفَا أَسْوَدَةَ بِالسَّاحِلِ أَرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ قَالَ سَرَاقَةُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فَلَانًا وَفَلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكْمَةِ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ وَأَخَذْتُ رُحْيِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ بِرُجْحِ الْأَرْضِ وَخَفَضْتُ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَرَفَعْتُهَا تُقَرَّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ فَعَثَرْتُ بِي فَرَسِي فَخَرَزْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي فَاسْتَخَرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ فَاسْتَفْسَمْتُ بِهَا أَصْرَهُمْ أَمْ لَا فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ تُقَرَّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الْإِلْتِقَاتِ سَاحَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغْنَا الرَّكْبَتَيْنِ فَخَرَزْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا

¹ - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي- صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3905

² - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي- صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3905

فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكُدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُنَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ فَاسْتَقْسَمَتْ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ فَوَقَفُوا فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقَيْتُ مَا لَقَيْتُ مِنْ الْحُبْسِ عَنْهُمْ أَنَّ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ فَلَمْ يَزْرَأْنِي وَمَ يَسْأَلَانِي إِلَّا أَنْ قَالَ أَخْفِ عَنَّا فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُفْعَةٍ مِنْ أُدِيمٍ ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ¹.

* /لقاء النبي- صلى الله عليه وسلم- الزبير في ركب الشام: قال البخاري: قَالَ ابْنُ شَهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ...²

5/ وصوله إلى المدينة

* /استقبال أهل المدينة لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- عند وصوله: قال البخاري: قَالَ ابْنُ شَهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ فَكَانُوا يَعْدُونَ كُلَّ عَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حُرَّ الظَّهِيرَةِ فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ فَلَمَّا أَوْوَأَ إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ عَلَى أُطْمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ فَتَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السَّلَاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَيْتِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ وَذَلِكَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَامِتًا فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتْ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ³، وفي رواية عبد الله بن رجاء (فخرج الناس حين قدم المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم جاء محمد رسول الله، الله أكبر، جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وأخرج الحاكم عن أنس (فخرجت حوار من بني النجار يضرين بالدف وهن يقلن: نحن حوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار، وأخرج

¹ - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي- صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3906

² - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي- صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3906

³ - صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي- صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3906

أبو سعيد في شرف المصطفى وفي فوائد الحلعي: من طريق عبید الله ابن عائشة منقطعاً: لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جعل الولا ئد يقطن: طلع البدر علينا من ثنية الوداع وحب الشكر علينا ما دعا الله داع¹، فكان نزوله الأول بقاء من عوالي المدينة، عند بنو عمرو بن عوف ابن مالك بن الأسود بن حارثة².

*/نزول النبي-صلى الله عليه وسلم- بقاء وبناء مسجدها: روى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف قال فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى ملا بني النجار قال فجاءوا متقلدي سيوفهم قال وكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وأبو بكر ردفه وملاً بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب³...، وكان عند أول وصوله المدينة نزل بهم في بني عمرو بن عوف ابن مالك بن الأوس بن حارثة ومنازلهم بقاء، وهي على فرسخ من المسجد النبوي بالمدينة، كان نزوله على كلثوم بن الهرم، وقيل: كان يومئذ مشركاً، وكان نزوله يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، وحزم ابن حزم بأنه خرج من مكة لثلاث ليال بقين من صفر، لكن الكلبي حزم بأنه دخلها لاثنتي عشرة خلت منه فعلى قوله تكون إقامته بقاء أربع ليال فقط وبه حزم ابن حبان فإنه قال: (أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس) يعني وخرج يوم الجمعة، فكأنه لم يعتد بيوم الخروج، وكذا قال موسى بن عقبة إنه أقام فيهم ثلاث ليال فكأنه لم يعتد بيوم الخروج ولا الدخول⁴.

وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن المسعودي عن الحكم بن عتيبة قال: (لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم فنزل بقاء قال عمار بن ياسر: ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم بد من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه، فجمع حجارة فبنى مسجد بقاء، فهو أول مسجد بني) يعني بالمدينة، وهو في التحقيق أول مسجد صلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه بأصحابه جماعة ظاهراً، وأول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة⁵.

*/نزول الرسول-صلى الله عليه وسلم في دار أبي أيوب الأنصاري: ونزل النبي-صلى الله عليه وسلم- في دار أبي أيوب الأنصاري، وهو من أحوال أبيه بني النجار⁶، لأن الأنصار أقاربه من جهة الأمومة، لأن أم جده عبد المطلب بن هاشم منهم، وهي سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وإنما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة على إخوانهم

¹ - فتح الباري، ج7، ص307

² - فتح الباري، ج7، ص312

³ - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب: مقدم النبي وأصحابه المدينة، رقم: 3932

⁴ - فتح الباري، ج7، ص287

⁵ - فتح الباري، ج7، ص288

⁶ - سعيد حوى: الأساس في السنة، ص333

بني مالك بن النجار¹، روى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل في غلوة المدينة في حيي يقال لهم بنو عمرو بن عوف قال فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى مالا بني النجار قال فجاءوا متقلدي سيوفهم قال وكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وأبو بكر ردفه ومالا بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب²...، وركب من قباء يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فقالوا: يا رسول الله هلم إلى العدد والعدد والقوة، انزل بين أظهرنا، وعند أبي الأسود عن عروة: وصاروا يتنازعون زمام ناقته بني ساعدة وبني عدي، يقول لكل منهم (دعوها فإنها مأمورة)، وعند الحاكم عن أنس (جاءت الأنصار فقالوا إينا يا رسول الله، فقال: دعوا الناقة فإنها مأمورة، فبركت على باب أبي أيوب)، وعند ابن عائذ وسعيد بن منصور كلاهما عن عطف بن خالد (أما استناخت به أولا فجاءه ناس فقالوا: المنزل يا رسول الله، فقال دعوها، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد، ثم تحلحت فنزل عنها فاتاه أبو أيوب فقال: إن منزلي أقرب المنازل فأذن لي أن أنقل رحلك، قال: نعم، فنقل وأناخ الناقة في منزله)، وذكر ابن سعد أن أبا أيوب لما نقل رحل النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (المرء مع رحله)، وأن سعد بن زرارة جاء فأخذ ناقته فكانت عنده، وذكر أيضا أن مدة إقامته عند أبي أيوب كانت سبعة أشهر³.

ب/ وضع النبي -صلى الله عليه وسلم- قواعد بناء الدولة الإسلامية بالمدينة

1/ بناء المسجد: روى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل في غلوة المدينة في حيي يقال لهم بنو عمرو بن عوف قال فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى مالا بني النجار قال فجاءوا متقلدي سيوفهم قال وكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وأبو بكر ردفه ومالا بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب قال فكان يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مريض الغنم قال ثم إن أمر ببناء المسجد فأرسل إلى مالا بني النجار فجاءوا فقال يا بني النجار تامنوني حائطكم هذا فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله قال فكان فيه ما أقول لكم كانت فيه قبور المشركين وكانت فيه حرب وكان فيه نخل فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت وبالْحَرْبِ فسويت وبالنخل فمطع قال فصفوا النخل قبله المسجد قال وجعلوا عبادتي حجارة قال قال جعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون اللهم إنهم لا خير إلا خير الأحره فانصرو الأنصار والمهاجرة⁴، وفي حديث آخر أنه أمر ببناء المسجد حيث بركت ناقته، قال البخاري: قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير... ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند

¹ فتح الباري، ج1، ص119

² صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: مقدم النبي وأصحابه المدينة، رقم: 3932

³ فتح الباري، ج7، ص289

⁴ صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: مقدم النبي وأصحابه المدينة، رقم: 3932

مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ مَرَبِدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ
عَلَامِينَ يَتِيمِينَ فِي حَجْرِ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَرَكْتَ بِهِ رَاحِلَتُهُ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
الْمَنْزِلُ ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَلَامِينَ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمَرَبِدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا فَقَالَا لَا بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتِئَاعَهُ مِنْهُمَا ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبْنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبْنَ هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرَ هَذَا أَبُورُنَيْنَا وَأَطْهَرُ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ
أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ فَتَمَثَّلَ بِشَعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي¹.

وكان موضع المسجد مریدا: وهو الموضع الذي يجفف فيه التمر، وقال الأصمعي: المرید كل شيء حبست فيه الإبل أو الغنم، وعند ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل: (لمن هذا؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو لسهيل وسهل ابني عمرو يتيمان لي وسأرضيهما منه)، وكانا في حجر أسعد بن زرارة، كان أسعد من السابقين إلى الإسلام من الأنصار، وذكر ابن سعد أن أسعد بن زرارة كان يصلي فيه قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم²، ووقع عند موسى بن عقبة عن الزهري أنه اشتراه منهما بعشرة دنانير، وزاد الواقدي أن أبا بكر دفعها لهما عنه من غلامين من بني النجار³، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاث أبواب: باب في مؤخره، وبابا يقال له باب الرحمة وهو الذي يدعى باب عاتكة، والباب الثالث الذي يدخل فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وجعل عمده الجذوع، وسقفه جريدا، وبنا بيوتا إلى جنبه باللبن وسقفها بجذوع النخل والجريد⁴.

11/ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار: وفي توقيتها اختلاف، فقيل بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل بتسعة، وقيل: وهو يبني المسجد، وقيل قبل بنائه، وقيل: بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر، وعند أبي سعيد في شرف المصطفى: كان الإخاء بينهم في المسجد، وكان ابتداء المؤاخاة أوائل قدومه المدينة، واستمر يحددها بحسب من يدخل في الإسلام أو يحضر إلى المدينة، وذكر محمد بن إسحاق المؤاخاة فقال (قال رسول الله لأصحابه بعد أن هاجر: تأخوا أخوين، فكان هو وعلي أخوين، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين، وجعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين)، وكان جعفر بالحبيشة فأرصده لأخوته حتى يقدم، وفي تفسير سنيد: آخى بين معاذ وابن مسعود، وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين، وعمر وعثمان بن مالك أخوين، وقال عمر (كان لي أخ من الأنصار) وهو عثمان، ويمكن أن يكون أخوته له تراخت كما في أبي الدرداء وسلمان، ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين، ويقال بل عمار وثابت بن قيس لأن حذيفة إنما أسلم زمان أحد، وأبو ذر والمنذر بن عمرو أخوين، وتعقب بأن أبا ذر تأخرت هجرته، والجواب كما في

¹ صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رقم: 3906

² فتح الباري، ج7، ص289-290

³ فتح الباري، ج7، ص312

⁴ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص163

جعفر، وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين وسلمان وأبو الدرداء أخوين، وتعقب بأن سلمان تأخر إسلامه وكذا أبو الدرداء، والجواب ما تقدم في جعفر، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وسمى ابن عبد البر جماعة آخرين¹، قال ابن عبد البر كانت المؤاخاة مرتين: مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار، وقيل لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، على الحق والمواساة، ويتوارثون بع الممات دون ذوي الأرحام²، وذكر الواقدي إلى جماعة من التابعين قالوا: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة آخى بين المهاجرين، وآخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة، وكانوا يتوارثون، وكانوا تسعين نفساً بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار، وقيل كانوا مائة، فلما نزل قوله تعالى: (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) بطلت الموارث بينهم بتلك المؤاخاة، ومن حديث ابن عباس (لما قدموا المدينة كان يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما، فنزلت)، قال السهيلي: آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل الموارث وجعل المؤمنين كلهم إخوة وأنزل (إنما المؤمنون إخوة) يعني في التوَادد وشمول الدعوة³.

وبعد الهجرة واجه المهاجرون مشاكل متنوعة اقتصادية واجتماعية وصحية، وكان معظم المهاجرين قد تركوا أهليهم وثرواتهم بمكة، وأن مهارتهم كانت في التجارة التي تمرست بها قريش، ولم تكن في الزراعة والصناعة التي يقوم عليهما اقتصاد المدينة، فكان وضع المهاجرين بحاجة إلى علاج سريع وحل مؤقت واستثنائي، وكانت أنفة المهاجرين ومكانتهم تقتضي معالجة أحوالهم بتشريع، يبعد عنهم أي شعور بأنهم عالة على الأنصار، فشرع المؤاخاة⁴.

111/ إصدار الوثيقة أو دستور المدينة

1/ نصوص الوثيقة في كتب السنة: روت كتب السنة أجزاء من وثيقة المدينة غير مرتبة في أبواب مختلفة، روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقبتهم وأن يقدوا غنائهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين⁵، وروى البخاري عن علي رضي الله عنه قال ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل وقال ذممة المسلمين

¹ - فتح الباري، ج7، ص317

² - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص162

³ - فتح الباري، ج7، ص317-318

⁴ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص242، 242، 243

⁵ - مسند الإمام أحمد، كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن عباس، رقم: 2317

وَإِحْدَهُ فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ وَمَنْ تَوَلَّى قَوْمًا بَغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ¹، ولمسلم من طريق أبي الطفيل (كنت عند علي فأتاه رجل فقال: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسر إليك؟ فغضب ثم قال: ما كان يسر إلي شيئا يكتمه عن الناس، غير أنه حدثني بكلمات أربع)، وفي رواية له (ما خصنا بشيء لم يعم به الناس كافة إلا ما كان في قراب سيفي هذا، فأخرج صحيفة مكتوبا فيها: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض، ولعن الله من لعن والده، ولعن الله من آوى محدثا)، ومن طريق أبي جحفية (قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر)، والجمع بين هذه الأخبار أن الصحيفة المذكورة كانت مشتملة على مجموع ما ذكر، فنقل كل راو بعضها²، وفيه أن ذمة المسلمين سواء صدرت من واحد أو أكثر شريف أو وضع، فإذا أمن أحد من المسلمين كافرا وأعطاه ذمة لم يكن لأحد نقضه، فيستوي في ذلك الرجل والمرأة والحر والعبد، لأن المسلمين كنفس واحدة، وقوله فمن أخفر، أي نقض العهد، يقال خفرت به بغير ألف: أمنتها، وأخفرت: نقضت عهده³.

وذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم وادع اليهود لما قدم المدينة وامتنعوا من اتباعه، فكتب بينهم كتابا، وكانوا ثلاث قبائل: قينقاع والنضير وقريظة، فنقض الثلاثة العهد طائفة بعد طائفة، فمن على بني قينقاع وأجلى بني النضير واستأصل بني قريظة⁴.

وقد جدد النبي -صلى الله عليه وسلم- الصحيفة مع اليهود بعد قتل كعب بن الأشرف، روى أبو داود عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ وَكَانَ أَحَدَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَبَّ عَلَيْهِمْ وَكَانَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ يَهُودِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُحَرِّضُ عَلَيْهِ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَأَهْلُهَا أَخْلَاطٌ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ وَالْيَهُودُ وَكَانُوا يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ بِالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ فَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمُ الْآيَةَ فَلَمَّا أَبَى كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ أَنْ يَنْزِعَ عَنْ أَدَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ أَنْ يَبْعَثَ رَهْطًا يَقْتُلُونَهُ فَبَعَثَ مُحَمَّدٌ بْنُ مَسْلَمَةَ وَذَكَرَ قِصَّةَ قَتْلِهِ فَلَمَّا قَتَلُوهُ فَرَعَتْ الْيَهُودُ وَالْمُشْرِكُونَ فَعَدَوْا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا طَرِقَ

¹- صحيح البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب: حرم المدينة، رقم: 1870

²- فتح الباري، ج 4، ص 102

³- فتح الباري، ج 4، ص 103

⁴- فتح الباري، ج 7، ص 322

صَاحِبُنَا فُقُتِلَ فَذَكَرَ هُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَانَ يَثُورُ وَدَعَاَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ كِتَابًا يَنْتَهُونَ إِلَى مَا فِيهِ فَكَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَيَّنَّ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً صَحِيفَةً¹.

والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود والمشركين إن أنتم تنتهون عن السب والأذى فلا يتعرض لكم المسلمون ولا يقتلوكم فكتب كتاب العهد والميثاق بين الفريقين ثم لما فتح الله تعالى خيبر سنة ست خربت اليهود وضعفت قوتهم، ثم أجلاهم عمر رضي الله عنه في خلافته من جزيرة العرب².

2/ نص الوثيقة كما وردت في كتب السير: أصدر النبي-ص- الصحيفة لتدعيم بناء الدولة الإسلامية، وأصدر وثيقة تنظم بموجبها العلاقات بين أفراد المجتمع الجديد-الكتل البشرية التي تعايشت في المدينة وخاصة اليهود-، أما عن محتوى الوثيقة فلم يتوفر نص كامل ببنوده-مثل صلح الحديبية-، وإنما هي مجرد أوامر صدرت عبر الزمن، جمعها أهل السير في كتاب واحد وأطلقوا عليها اسم الوثيقة.

قال ابن كثير³: قال محمد ابن إسحاق: كتب رسول الله -ص- كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم: بسم الله الرحمن الرحيم [هذا كتاب من محمد النبي الأمي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ريعتهم-حالمهم التي أتى الإسلام وهم عليها-يتعاقلون بينهم، وهم يَفْذُونَ عَانِيَهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ، وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رِيعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ وَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْذَى عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ كُلَّ بَطْنٍ مِنْ بَطْنِ الْأَنْصَارِ وَأَهْلِ كُلِّ دَارٍ: بَنِي سَاعِدَةَ، وَبَنِي جُشَمَ، وَبَنِي النَّجَارِ، وَبَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ، وَبَنِي النَّبِيبِ...إلى أن قال: وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرَكُونَ مُفْرَجًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ وَعَقْلٍ، وَلَا يَخَالِفُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً-عَظِيمَةً- ظَلَمَ أَوْ إِثْمًا أَوْ عَدْوَانَ أَوْ فِسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهِ جَمِيعُهُمْ، وَلَوْ كَانَ وَلَدًا أَحَدَهُمْ، وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ، وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا مُؤْمِنًا، وَإِنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يَجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوْلَى بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ، وَإِنَّ مَنْ تَبِعْنَا مِنْ يَهُودٍ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأَسْوَةَ غِي مَظْلُومِينَ وَلَا مَتَنَاصِرٍ ِ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ، لَا يَسْلِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا عَلَى سِوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبِيءُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هَدْيٍ وَأَقْوَمِهِ، وَإِنَّهُ لَا يَجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقَرِيْشٍ وَلَا نَفْسًا وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ، وَإِنَّهُ مَنْ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قِتَالًا عَنْ بَيْتِهِ فَإِنَّهُ قَوْدٌ بِهِ إِلَى أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَةٌ وَلَا

¹ - سنن أبو داود: كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: كيف كان إخراج اليهود من المدينة، رقم: 2066

² - أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1415هـ، [ج8/ 160]

³ - ابن كثير: السيرة النبوية، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة لبنان، 1402هـ/1982م، ج2، ص319

يجل لهم إلا قياماً عليه، وإنه لا يجل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد -ص-، وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ -يهلك- إلا نفسه وأهل بيته، وإن يهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطيبة مثل يهود بني عوف، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، ولا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه وبأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم التصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله -ص-، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه، وأثم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظالم أو آثم، وإن الله جاز لمن برّ واتقى¹.

3/ بنود الوثيقة:

- 1- هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم/2- إنهم أمة واحدة من دون الناس
- 3- المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين
- 4- وبني عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين
- 5- وبني الحارث بن الخزرج على ريعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف
- 6- وبني ساعدة على ريعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين
- 7- وبني جشم على ريعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

¹ - ابن كثير: السيرة النبوية ج2، ص319

- 8- وبنو النجار على ريعتم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين
- 9- وبنو عمرو بن عوف على ريعتم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين
- 10- بنو النبيت على ريعتم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين
- 11- وبنو الأوس على ريعتم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين
- 12- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف، من فداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه/13- وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم/14- ولا يقتل مؤمنا مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن
- 15- وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس/16- وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم/
- 17- وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم
- 18- وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا/19- وإن المؤمنين بيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله/20- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن/21- وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة، فإنه قو دبه إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه
- 22- وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل/23- وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد/24- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين
- 25- وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته/26- وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بن عوف/27- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بن عوف/28- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بن عوف/29- وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بن عوف/30- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بن عوف/31- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بن عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته/32- وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم/33- وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بن عوف وإن البر دون الإثم/34- وإن موالي ثعلبة كأنفسهم/35- وإن بطانة يهود كأنفسهم/36- وإنه لا يخرج

منهم أحدا إلا بإذن محمد، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا/37- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لا يأثم أمرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم

38- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين/39- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة/40- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم/41- وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها/42- وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره/43- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها/44- وإن بينهم النصر من دون يثرب/45- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم

46- وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره

47- وإنه لا يجوز هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وآثم، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله- صلى الله عليه وسلم-¹.

4/تحليل مضمون الوثيقة: وهي كما نلاحظ وثيقة تنظم الحياة المدنية والعلاقات الداخلية بين سكن المدينة من جهة، وتنظم العلاقات الخارجية والسياسية مع المحاربين والمسلمين لأهل المدينة، وبصفة عامة يمثل إصدار الوثيقة تطورا كبيرا في مفاهيم الاجتماع والسياسة، فهذه جماعة تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم، واحتوت الوثيقة على مواد متعلقة باليهود وعلاقتهم بالمسلمين، والمواد التي تتضمن موادة اليهود تبدأ من المادة 24 إلى المادة 47، ونصت المادة 24 على أن اليهود التزموا بدفع قسط من نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة²، أما البنود من 25 إلى 35 فحددت العلاقة مع المتهودين من الأوس والخزرج، ونسبتهم إلى عشائرتهم العربية، وأقرت حلفهم مع المسلمين، وكفلت المادة 25 لليهود حريتهم الدينية، وأقرت الصحيفة مفهوم الحرية الدينية بأوسع معانيها، وضربت عرض الحائط بمبدأ التعصب ومصادرة الآراء والمعتقدات، كما حددت مسئولية الجرائم وحصرتها في مرتكبها، كما منع البند 43 اليهود من إجارة قريش أو نصرها، كما منع البند 36 اليهود من الخروج من المدينة إلا بعد استئذان الرسول- صلى الله عليه وسلم-، واعترف اليهود في المادة 42 بسلطة قضائية يرجعون إليها، وشملت المادة 45 حلفاء المسلمين

¹- أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 282-285

²- المصدر نفسه، ص 285-286

وحلفاء اليهود من سائر القبائل باستثناء قريش، والمادة 39 اعتبرت المدينة حرماً لا يحل انتهاكه، فلا يقتل صيده ولا يقطع شجره، وحدد حرم المدينة بين الحرة الشرقية والحرة الغربية، وبين جبل ثور في الشمال وجبل عير في الجنوب، ويدخل وادي العقيق في الحرم، فحل الأمن بهذه المادة داخل المدينة ومنعت الحروب الداخلية¹.

كما تضمنت الوثيقة مواد متعلقة بعلاقة المسلمين ببعضهم وتحدد واجباتهم وحقوقهم، وفي المادة الأولى تعريفاً بالأطراف المتحالفة وهو المهاجرين والأنصار، ونصت المادة الثانية على أنهم أمة واحدة تربطهم رابطة العقيدة، يتميزون بها عن كل الناس، وقد جاءت هذه موافقة تماماً لما ورد في القرآن الكريم، من المبادئ العامة من حيث اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس، ومن حيث التعاون والتراحم بينهم، ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحة والحوار، وذكرت البنود من 3 إلى 11 العشائر، واعتبرت المهاجرين كتلة واحدة لقلّة عددهم، أما الأنصار فنسبتهم إلى عشائرتهم وهذا لا يعني الإبقاء على العصبية القبلية، بل اعتراف بالروابط الأخرى بعد رابطة العقيدة، وجعل أفراد العشيرة الواحدة متضامنين في دفع الديات وفكّك الأسرى وإعانة المحتاج، وفي المادة 13 الأخذ على يد البغاة والمعتدين والمفسدين، أما البند 21 فنص على جناية القتل دون سبب يوجبه فإن القاتل يقاد به، ويعاون المؤمنون في تطبيق الحكم عليه وعدم حماية الجاني مهما بلغت درجت قرابته، وفي المادة 17 نص على أن السلم والحرب جميعاً المؤمنون فيه سواء لا يعد أحدهم سلماً ولا حرباً دون الآخر، وفي المادة 23 يقرر البند أن المرجع عند الخلاف هو النبي -صلى الله عليه وسلم-².

ج/ فريضة الجهاد

1/ الإذن في القتال: بعد أن قاربت مرحلة بناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة على نهايتها، ووضع النبي -ص- خطواته الأولى نحو بناء الدولة الإسلامية في يثرب، صعّدت قريش اضطهادها ومقاومتها لأتباع الدين الجديد، نزل عندها الإذن بالقتال، روى النسائي والترمذي عن ابن عباس قال: (لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن؛ فأنزل الله تعالى: [أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ]³، فقال أبو بكر: لقد علمت أنه سيكون قتال)⁴، قال ابن كثير: وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقيين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نيفاً وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي يعنون أهل ليالي مني فنقتلهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لم أؤمر بهذا)،

¹ - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 290-292

² - أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ص 292-298

³ - سورة الحج، الآية (39)

⁴ - سنن الترمذي: كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة الحج، رقم: 3095

فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم وهموا بقتله وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهبت منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة فلما استقروا بالمدينة وافاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعوا عليه وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلا يلجئون إليه شرع الله جهاد الأعداء فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك¹.

11/ **شُرِعَ الجهاد لرد العدوان وليس للعدوان:** قال ابن كثير في تفسيره الآية 77 من سورة النساء: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النصب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتموا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلد حرام وأشرف بقاع الأرض فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال، فلماذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار².

إن الجهاد الذي أذن فيه الله -عز وجل- لرسوله -ص- هو حرباً دفاعية، يمكن أن تعلنها أية أمة تعرضت للخطر الذي تعرضت له دولته الناشئة في المدينة في أي زمان أو مكان، ولذلك كانت غزوات النبي -ص- كلها دفاعية فعلاً، لرد مؤامرة أو عدوان بدأ به المشركون، ولذلك فهي تمثل مرحلة من الدعوة الجديدة تطلبت وسائل جديدة، مثل مرحلة الدعوة السرية، ثم مرحلة الجهر المسالم بالدعوة³.

111/ **وقفمة لا بد منها:** إن فريضة الجهاد في سبيل الله، تعرضت إلى هجوم عنيف، من قبل أعداء الإسلام وبعض أصدقائه وحتى بعض أبنائه في بعض الأحيان، ونرى أن الحامل على ذلك، إما العداء التقليدي للإسلام من خصومه الأقدمين بداية من المشركين وغيرهم، وهؤلاء لا نحاكمهم إلا بالتاريخ الإسلامي الناصع وخاصة في فتوحاته الأولى، أو يكون الدافع عند البعض غموض مفهوم الجهاد لديه، فيحتاج إلى تبيان، أو البعض الآخر أصدر حكمه عليه جاهزاً متأثراً بكيد الأعداء، فيحتاج إلى تصحيح، أو نتج عن ذلك تصرفات بعض الجهلة بأحكام الجهاد وتصرفهم الخاطيء به، والإساءة إليه بتشويه سمعته والإضرار به، أو غير ذلك فيحتاج تفصيل وتدليل!

إن الجهاد ليس إعلان الحرب على كل مخالف لما يحمله هذا الدين من اعتقاد، أو نظرة أخرى مخالفة لأحكامه وتشريعاته وآدابه، وإنما هو حالة من دفاع المسلمين عن دينهم وأنفسهم وأرضهم وعرضهم والمستضعفين منهم، وإذا كان الجهاد هو إعلان الحرب من المسلمين على مخالفيهم، فلماذا لم يؤذن به لهم وهم في أمس الحاجة إليه والدفاع عن

¹- تفسير ابن كثير، ج4، ص304

²- تفسير ابن كثير، ج2، ص211

³- سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر الجزائر، ط11، 1412هـ/1991م، ص155

أنفسهم بدل إخراجهم وتركهم أوطانهم ومفارقتهم لأبنائهم وأعز أصدقائهم وكل أملاكهم وأموالهم، ولفهم حقيقة الجهاد لا بد من تعريفه وإبراز غاياته وأهدافه وتحديد مراحلها التي مر بها منذ ظهور الدعوة في مكة إلى غاية الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا.

1/ مفهوم الجهاد: معناه بدل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة المجتمع الإسلامي، والقتال نوع من أنواعه

2/ غايته: أما غايته فهي إقامة المجتمع الإسلامي وتكوين الدولة الإسلامية بمبادئها السامية وغايتها النبيلة.

3/ المراحل التي مر بها: كان الجهاد في صدر الإسلام مقتصرًا على نشر الدعوة سرا وسلما، لكسب أول الأنصار وتأسيس القاعدة الأساسية للانطلاق، ثم الجهر بالدعوة مع الإبقاء على سلمية وسائلها، والصمود في سبيلها للمحن والشدائد، ثم جاءت مرحلة جديدة مع بدء المحررة وشرع إلى جانبها القتال الدفاعي، أي رد كل قوة يمثلها، بعد أن صارت للمسلمين في المدينة دولة تحتضنه وتفر له شروط القيام والبناء وغيرها، ثم شرع بعد ذلك بعد غزوة الأحزاب القتال الدفاعي خارج المدينة- أو الحرب الاستباقية-، يعني مهاجمة العدو ومباغتته في عقر داره قبل أن يهاجم المسلمين في المدينة، وذلك بقتال كل من وقف عقبة في طريق الدعوة الإسلامية، أو هدد أمن الدولة الإسلامية، ومن ثم كان الجهاد مجرد مرحلة فقط، ومن هنا تعلم أنه لا معنى لتقسيم الجهاد في سبيل الله إلى حرب دفاعية وأخرى هجومية، إذ أن مناط شرعة الجهاد ليس الدفاع لذاته ولا الهجوم لذاته، وإنما مناطه الحاجة إلى إقامة المجتمع الإسلامي، بكل ما يتطلبه من النظم والمبادئ الإسلامية، ولا عبرة بعد ذلك بكونه جاء هجوما أم دفاعا¹، وذلك رغم أن المعاصرين يشنون الحروب على بلدان تشكل في نظرهم خطرا عليهم تبعد عنهم بآلاف الأميال، ولا يسمونه حربا هجوما بل يقولون بأنها دفاعية لحماية الديمقراطية أو شيء من هذا السبيل، فسبيل الدعوة هي الحكمة والموعظة الحسنة، ولم تكن الحرب يوما هي السبيل لنشر الإسلام، وأما الحروب التي نشبت بين المسلمين والفرس والروم وغيرهم، فقد اضطر إليها المسلمون اضطرارا: - إما للدفاع عن أنفسهم، - وإما للدفاع عن حرية نشر عقيدتهم لا لنشرها، والفرق كبير بين الأمرين²، فكانوا لا يقاتلون أحدا إلا دفاعا عن الدعوة الإسلامية إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن بإجباره بأنواع التعذيب والإكراه حتى يرجع عما اختاره لنفسه كما تقدم، أو بصد من أراد الدخول في الإسلام عنه، أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته³.

¹ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، 126، 127

² - الماحي: الدعوة الإسلامية في إفريقيا، د.ط، د.ت، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر في إفريقيا، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، ص 28

³ - الماحي: الدعوة الإسلامية، ص 24

4/ الجهاد في مرحلة الفتوحات الإسلامية: أما الفرية الأخرى بأن دافع الجهاد عند المسلمين كان ماديا بحتا،

وإنما الغرض منه التقليل من أهمية العامل الروحي في الإسلام، وإضعاف فريضة الجهاد في نفوس المسلمين، وإماتة روح القوة لديهم، تأثرا بالاتجاه المادي في تفسير التاريخ، والذي يحاول أن يفسر كل حادثة تفسيراً مادياً، ينفي أي أثر للإيمان بالله والجهاد في سبيل إعلاء كلمته، وقد كان العرب قبل الإسلام أحوج لهذه الفتوحات على هذا المبدأ ولم يفعلوا، وإنما هو دور العقيدة في إيقاظ الهمم وتحريك القيم، وإزالة الخصومات والعصبيات التي كانت تفرقهم ولا توحدهم، وتعلموا من الإسلام معنى الأرض والوطن والأمة والدفاع عن المكتسبات، ونشر المبادئ والقيم والدعوة إلى الله.

5/ سماحة الإسلام في فتوحاته ومبادئ القتال عند المسلمين: وخير دليل على ذلك انتشار الإسلام في إفريقيا، فلم

يكن استنزافاً للموارد- كما فعل الاستعمار الأوربي- بل كان تعميراً، والإسلام لم يسترق الإنسان الإفريقي بل حرره بعيداً عن إرهاب السيطر- كما حدث في أمريكا-¹.

وعندما دخل الإسلام بيت المقدس فاتحاً لها سنة 15هـ/638م، فقد كان فاتحها المسلمين متسامحين على نحو مدهش مع تابعيهم المسيحيين، وفي الواقع رحب بعض المسيحيين هناك بجماعة بالحياء تحت قيادة حاكمهم الجديد، وفضلوها على تلك التي توجب تحملها لقرون تحت سيطرة الأباطرة البيزنطيين، الذين لم يرهقوهم بالضرائب الكثيرة فحسب، بل كانوا يضطهدونهم لعقائدهم المنشقة- حسب المعايير التي آمنت بها القسطنطينية- ولكنها كانت مرفوضة في فلسطين وسورية ومصر، فقد أفسح المسلمون لهم المجال على الأقل ليؤمنوا بما اعتقدوا به، وعبادة ما فكروا أنه مناسب، كم أفسحوا المجال للحجاج من الغرب لزيارة المواقع الدينية المقدسة لديهم²، ومعلوم أن هذه المبادئ مأخوذة من صميم الشرع في نصوصه وآدابه وأحكامه، وما تميزوا به من حسن المعاملة هو من حسن التعليم والتربية والتدريب، والإخلاص للدعوة وحدها، ولعلك تزداد احتراماً للإسلام عندما تعرض لمبادئ القتال السامية فيه، تلك المبادئ المعلنة من قادة الفتوحات، وخاصة عندما تقارنها بما يجري اليوم من حروب ضحاياها هم من المدنيين الأبرياء، وإليك وصية أبي بكر -رضه- لخالد بن الوليد-رضه- قائد أركان جيوش الفتوحات، والتي كانت ولا تزال دستوراً يتبعه المسلمون في حروبهم: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له³.

¹ - حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الغولاني، ص7

² - أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، تر: أحمد غسان سبانو وبنبيل الجيرودي، دار قتيبة دمشق، 1985، ص20

³ - سامي محمود: انتشار الإسلام، ص9

وكان بدء مشروعية القتال بعد الهجرة كما تقدم، ولكنه لم يوضع قيد التنفيذ إلا بعد سنة كاملة من الهجرة، وكان أول خروج له -ص- بقصد الغزو فيما يسمى بغزوة ودان، وكان يريد قريشا وبنو حمزة، ولكنه -ص- كفي القتال ووادعه بني حمزة، وعاد إلى المدينة دون قتال، ثم كان اللقاء في أول معركة مع قريش في غزوة بدر الكبرى¹.

د/ تشريعات المرحلة وأهم أحداثها

1/ تشريع الأذان: روى الدرامي عن مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَهَا قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَعْني الْمَدِينَةَ إِنَّمَا يُجْتَمَعُ إِلَيْهِ بِالصَّلَاةِ لِحِينَ مَوَاقِيئِهَا بَعِيرٌ دَعْوَةٌ فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَجْعَلَ بَوْقًا كَبُوقِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهِ لِصَلَاتِهِمْ ثُمَّ كَرِهَهُ ثُمَّ أَمَرَ بِالنَّافُوسِ فَنَحَتْ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلَاةِ فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ رَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ أَخُو بَلْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ طَافَ بِي اللَّيْلَةَ طَائِفٌ مَرَّ بِي رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَحْضَرَانِ يَحْمِلُ نَافُوسًا فِي يَدِهِ فَقُلْتُ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ هَذَا النَّافُوسَ فَقَالَ وَمَا تَصْنَعُ بِهِ قُلْتُ نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ أَفَلَا أَذُكُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ قُلْتُ وَمَا هُوَ قَالَ تَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَأْخَرَ غَيْرَ كَثِيرٍ ثُمَّ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ وَجَعَلَهَا وَثْرًا إِلَّا أَنَّهُ قَالَ قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَلَمَّا خَبَّرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّهَا لِرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَعُمِّ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْفَهَا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ أُنْذَى صَوْتًا مِنْكَ فَلَمَّا أَدَّنَ بِلَالٌ سَمِعَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَجُرُّ إِزَارَهُ وَهُوَ يَقُولُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ مَا رَأَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ²، وروى الإمام مالك عن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ حَشْبَتَيْنِ يُضْرَبُ بِهِمَا لِيَجْتَمَعَ النَّاسُ لِلصَّلَاةِ فَأَرَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ حَشْبَتَيْنِ فِي النَّوْمِ فَقَالَ إِنَّ هَاتَيْنِ لَنَحْوُ مِمَّا يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعِيلَ أَلَا تُؤَدُّونَ لِلصَّلَاةِ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ اسْتَيْقِظَ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَذَانِ³.

¹ - سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، ص156

² - سنن الدرامي: كتاب: الصلاة، باب: في بدء الأذان، رقم: 1163

³ - موطأ الإمام مالك: كتاب: النداء للصلاة، باب: ما جاء في النداء للصلاة، رقم: 134

١١/إتمام الصلاة: روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر¹، وروى النسائي عن عائشة قالت فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر²، فالزيادة في صلاة الحضر وقعت بالمدينة، والذي يظهر أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت بعد الهجرة عقب الهجرة إلا الصبح، كما روى ابن خزيمة وابن حبان والبيهقي عن عائشة قالت (فرضت صلاة الحضر والسفر ركعتين ركعتين، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واطمأن زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار)، ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خفف منها في السفر عند نزول الآية السابقة وهي قوله تعالى (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير في شرح المسند أن قصر الصلاة كان في السنة الرابعة من الهجرة³، وعند الإمام أحمد أنها مرت بثلاث أحوال، عن معاذ بن جبل قال أحييت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام ثلاثة أحوال فأما أحوال الصلاة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهرا إلى بيت المقدس ثم إن الله أنزل عليه قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره قال فوجهه الله إلى مكة قال فهذا حوّل قال وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذنون بها بعضهم بعضا حتى نكسوا أو كادوا ينكسوا قال ثم إن رجلا من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم ولو قلت إني لم أكن نائما لصدقت إني نبينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصا عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله مثني مثني حتى فرغ من الأذان ثم أمهل ساعة قال ثم قال مثل الذي قال غير أنه يزيد في ذلك قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم علمها بلالا فليؤذن بها فكان بلال أول من أذن بها قال وجاء عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله إنه قد طاف بي مثل الذي أطاف به غير أنه سبني فهذا حوّلان قال وكانوا يأتون الصلاة وقد سبهم ببعضها النبي صلى الله عليه وسلم قال فكان الرجل يشير إلى الرجل إن جاءكم صلى فيقول واحدة أو اثنتين فيصليها ثم يدخل مع القوم في صلاتهم قال فجاء معاذ فقال لا أجده على حال أبدا إلا كنت عليها ثم قضيت ما سبني قال فجاء وقد سبته النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها قال فتبت معه فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قام ففضى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا فهذه ثلاثة أحوال⁴...

¹ - صحيح البخاري: كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم: 337

² - سنن النسائي: كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة، رقم: 451

³ - فتح الباري: ج1، ص553-554

⁴ - مسند أحمد: كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث معاذ بن جبل، رقم: 21107

111/صلاة الجمعة: وقد اختلف في وقت فرضيتها، فالأكثر على أنها فرضت بالمدينة، لأنه فرضت بآيات مدنية¹ في قول الله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ]²، والي-صلى الله عليه وسلم- حين وصوله من الهجرة، أدركته أول جمعة في بني سالم بن عوف فقالوا: يا رسول الله هلم إلى العدد والعدد والقوة، أنزل بين أظهرنا³، فصلى أول جمعة في الإسلام هناك، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، فكانت أو جمعة صلاها في المدينة⁴.

1111/تحويل القبلة والمفاصلة والتمايز عن اليهود: ذكر ابن كثير أن تحويل القبلة كان في شهر رجب سنة اثنتين من الهجرة قبل غزوة بدر الكبرى⁵، وهو موافق لما رواه البخاري: عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَىٰ أَجْدَادِهِ أَوْ قَالَ أَحْوَالِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبَلَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَىٰ أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ فَذَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ وَكَانَتْ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ قَالَ زُهَيْرٌ حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ الْبَرَاءِ فِي حَدِيثِهِ هَذَا أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقْتَلُوا فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ⁶، قال ابن حجر: والجمع بين الروايات بأن يكون من جزم بستة عشر عدًّا من شهر القدوم وشهر التحويل شهرا وألغى الزائد، ومن جزم بسبعة عشر عددها معار، وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف، وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور، وقال ابن حبان (سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام)، وهو مبني على أن القدوم كان في ثاني عشر شهر ربيع الأول، وأول صلاة صلاها متوجها إلى الكعبة صلاة العصر، وعند ابن سعد: حولت القبلة في صلاة الظهر أو العصر - على التردد - وساق ذلك من حديث عمارة بن أوس قال: صلينا إحدى صلاتي العشي، والتحقيق أن أول صلاة صلاها في بني سلمة لما مات بشر بن البراء بن معرور الظهر، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي العصر، وأما الصبح فهو من حديث ابن عمر بأهل قباء⁷.

¹ -فتح الباري، ج2، ص412

² -سورة الجمعة، الآية9

³ -فتح الباري، ج7، ص289

⁴ -السيرة النبوية، ج2، ص271

⁵ -السيرة النبوية، ج2، ص372

⁶ -صحيح البخاري: كتاب:الإيمان ، باب:الصلاة من الإيمان، رقم:29

⁷ -فتح الباري، ج1، ص120

ولما حول النبي- صلى الله عليه وسلم- قبلته، اعترض على ذلك اليهود فأُنزل قَوْلُهُ تَعَالَى: [سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] بَاب قَوْلِهِ تَعَالَى سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ¹، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأُنزل الله عز وجل (فولوا وجوهكم شطره) أي نحوه فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ أي قالوا ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا فأُنزل الله جوابهم في قوله: (قل لله المشرق والمغرب) أي الحكم والتصرف والأمر كله لله (فأينما تولوا فثم وجه الله) و(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله) أي الشأن كله في امتثال أوامر الله فحيثما وجهنا فالتوجهنا فالطاعة في امتثال أمره ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده وفي تصرفه وخدامه حيثما وجهنا فالتوجهنا وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله في الأرض إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال: قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة قَالَتْ بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ... إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَا عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ هَا وَضَلُّوا عَنْهَا وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ هَا وَضَلُّوا عَنْهَا وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ آمِينَ².

11111/فريضة الصيام: وكان فرض صيام رمضان في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة قبل غزوة بدر الكبرى³، روى أبو داود عن عمرو بن مرة سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي لَيْلَى قَالَ... حَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ أَمَرَهُمْ بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَنْزَلَ رَمَضَانَ وَكَانُوا قَوْمًا لَمْ يَتَعَوَّدُوا الصِّيَامَ وَكَانَ الصِّيَامُ عَلَيْهِمْ شَدِيدًا فَكَانَ مَنْ لَمْ يَصُمْ أَطْعَمَ مِسْكِينًا فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ فَكَانَتْ الرُّخْصَةُ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ فَأَمَرُوا بِالصِّيَامِ قَالَ، وَحَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا قَالَ وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَفْطَرَ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ لَمْ يَأْكُلْ حَتَّى يُصْبِحَ قَالَ فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَرَادَ

¹- سورة البقرة، الآية 142

²- مسند الإمام أحمد: كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث السيدة عائشة، رقم: 23880

³- ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 388

امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ إِنِّي قَدْ نِمْتُ فَظَنَّ أَنَّهَا تَعْتَلُ فَأَتَاهَا فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَرَادَ الطَّعَامَ فَقَالُوا حَتَّى نُسَخِّنَ لَكَ شَيْئًا فَنَامَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ¹.

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ويصوم يوم عاشوراء، ثم أنزل صوم رمضان، وكانوا قوما لم يتعودوا الصيام، أي أن الناس لم تكن عادتهم بالصيام فكان عليهم شديدا لا يتحملونه، فكان من لم يصم أطعم مسكينا، وهذا هو الحال الأول من الأحوال الثلاثة للصيام، وفي رواية: فكان من شاء أن يصوم صام، ومن شاء أن يفطر ويطعم كل يوم مسكينا أجزاء ذلك فهذا حول، فنزل قوله تعالى [فمن شهد منكم الشهر فليصمه]، أي فمن كان حاضرا مقيما غير مسافر فأدركه الشهر فليصمه، والشهود الحضور، فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام فهذان حالان فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام فهذان حالان، وفي رواية للبخاري: إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، فجاء رجل من الأنصار إلى أهله وكان صائما فأراد الطعام فقالوا حتى نسحن لك شيئا فنام الرجل الأنصاري، فلما أصبحوا نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم- (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم)، وهذا هو الحال الثالث للصيام²، وروى الإمام أحمد عن معاذ قال وَأَمَّا أَحْوَالُ الصِّيَامِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَقَالَ يَزِيدُ فَصَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رَيْبِعِ الْأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَصَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْهِ الصِّيَامَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامِ مِسْكِينٍ قَالَ فَكَانَ مِنْ شَاءِ صَامٍ وَمَنْ شَاءَ أَطْعَمَ مِسْكِينًا فَأَحْزَأَ ذَلِكَ عَنْهُ قَالَ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ الْآيَةَ الْأُخْرَى شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ إِلَى قَوْلِهِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ قَالَ فَأُثِّبَتِ اللَّهُ صِيَامَهُ عَلَى الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ وَرَخِّصَ فِيهِ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ وَثَبَّتِ الْإِطْعَامَ لِلْكَبِيرِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ فَهَذَانِ حَوْلَانِ قَالَ وَكَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَأْتُونَ النِّسَاءَ مَا لَمْ يَنَامُوا فَإِذَا نَامُوا امْتَنَعُوا قَالَ ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ صِرْمَةُ ظَلَّ يَعْمَلُ صَائِمًا حَتَّى أَمْسَى فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ فَصَلَّى الْعِشَاءَ ثُمَّ نَامَ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ حَتَّى أَصْبَحَ فَأَصْبَحَ صَائِمًا قَالَ فَرَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ جَهَدَ جَهْدًا شَدِيدًا قَالَ مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَهَدْتَ جَهْدًا شَدِيدًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَمِلْتُ أَمْسَ فَجِئْتُ حِينَ جِئْتُ فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي فَنِمْتُ وَأَصْبَحْتُ حِينَ أَصْبَحْتُ صَائِمًا قَالَ وَكَانَ عُمُرُ قَدْ أَصَابَ مِنَ النِّسَاءِ مِنْ جَارِيَةٍ أَوْ مِنْ حُرَّةٍ بَعْدَ مَا نَامَ وَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ

¹- سنن أبي داود: كتاب: الصلاة، باب: كيف الأذان، رقم: 426

²- أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1415هـ، [ج 137/]

ذَلِكَ لَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أُحْلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ إِلَى قَوْلِهِ ثُمَّ أْتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَقَالَ يَزِيدُ فَصَامَ تِسْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ¹.

ه/غزوات النبي -صلى الله عليه وسلم- وسرايا أصحابه في هذه المرحلة

ا/الغزوات قبل غزوة بدر: والمراد بالغزوات ما وقع من قصد النبي صلى الله عليه وسلم الكفار بنفسه أو بجيش من قبله، وقصدهم أعم من أن يكون إلى بلادهم أو إلى الأماكن التي حلوها حتى دخل مثل أحد والخندق².

1/ غزوة ودان: كان أول قدوم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة شهر يبيع الأول وشهر ربيع الآخر وجماديين ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة، ثم خرج غازيا في صفر على رأس اثنتي عشر شهرا من مقدمه³، فكانت غزوة ودان أول غزوات النبي صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة في صفر على رأس اثني عشر شهرا من مقدمه المدينة يريد قريشا، فوادع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة، وادعه رئيسهم مخشي بن عمرو الضميري⁴ ورجع بغير قتال، قال ابن هشام: وكان قد استعمل على المدينة سعد بن عباد، وقال ابن عبد البر في كتاب الدرر في المغازي والسير: أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة ودان غزاها بنفسه في صفر، وذلك أنه وصل إلى المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، أقام بها بقية ربيع الأول وباقي العام كله إلى صفر من سنة إثنين من الهجرة، ثم خرج في صفر المذكور واستعمل على المدينة سعد بن عباد حتى بلغ ودان فوادع بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربا، وهي المسماة بغزوة الأبواء⁵.

2/ غزوة الأبواء: الأبواء قرية من عمل الفرع بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلا، قيل سميت بذلك لما كان فيها من الوباء، والأبواء وودان مكانان متقاربان بينهما ستة أميال أو ثمانية⁶، ولهذا وقع في حديث الصعب بن جثامة: وهو بالأبواء أو بودان، ووقع في مغازي الأموي عن ابن إسحاق قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم غازيا بنفسه حتى انتهى إلى ودان وهي الأبواء، وقال موسى بن عقبة: أول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم - يعني بنفسه - الأبواء، وفي الطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال: أول غزاة غزوناها مع النبي الأبواء، وذكر أبو الأسود في مغازيه من حديث ابن عباس (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى الأبواء بعث عبيدة

¹-مسند أحمد: كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث معاذ بن جبل، رقم: 21107

²- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 326

³- ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 356

⁴- المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة

⁵- أبو العباس أحمد بن أبي حنيفة عمير بن إبراهيم الحافظ الأنصاري القرطبي: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، [ج 12/ 16]

⁶- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 326

بن الحارث في ستين رجلا فلقوا جمعا من قريش فتراموا بالنبل، فرمى سعد بن أبي وقاص بسهم، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله¹.

3/ غزوة العُشيرة: العُشيرة نسبة إلى المكان الذي وصلوا إليه واسمه العشير أو العشيبة، وهي مكان عند منزل الحج بينبع، قال ابن إسحاق: هي بطن بينبع، وليس بينها وبين البلد إلا الطريق، وخرج إليها في عدة مائة وخمسين أو مائتين، قال ابن هشام: واستخلف فيها على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد²، وخرج إليها جمادي الأولى يريد قريشا أيضا، فوادع فيها بني مدلج من كنانة، وحلفائهم من بني ضمرة³، وذكر ابن سعد أن المطلوب في هذه الغزاة هي غير قريش التي صدرت من مكة إلى الشام بالتجارة ففاتتهم، وكانوا يتقربون رجوعها فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يتلقاها ليغنمها، فبسبب ذلك كانت وقعة بدر، وذكر ابن إسحاق عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيبة من بطن بينبع فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهرا فصالح بها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة فوادعهم، فقال أبو عمر: فأقام بها بقية جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، ووادع فيها بني مدلج ولم يلق حربا، وروى عن أبي إسحاق كُنْتُ إِلَى جَنْبِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَقِيلَ لَهُ كَمْ غَزَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَةٍ قَالَ تِسْعَ عَشْرَةَ قِيلَ كَمْ غَزَوْتَ أَنْتَ مَعَهُ قَالَ سَبْعَ عَشْرَةَ قُلْتُ فَأَيُّهُمْ كَانَتْ أَوَّلَ قَالَ الْعُسَيْرَةُ أَوْ الْعُشَيْرَةُ فَذَكَرْتُ لِغَتَادَةَ فَقَالَ الْعُشَيْرُ⁴، وقع عند مسلم (قلت أول غزوة غزاها؟ قال: ذات العشير أو العشيبة)، وغزوة العشيبة هي الثالثة، قال ابن التين: يحمل قول زيد بن أرقم على أن العشيبة أول ما غزا هو، فقلت ما أول غزوة غزاها أي وأنت معه؟ قال: العشير، ويكون قد خفي عليه اثنتان، فعلى هذا ففات زيد بن أرقم ذكر اثنتين منها ولعلهما الأبواء وبواط، وكان ذلك خفي عليه لصغره⁵.

4/ غزوة بواط أو بُوَاط: وأما بواط فهو جبل من جبال جهينة بقرب بينبع، قال ابن إسحاق: ثم غزا في شهر ربيع الأول يريد قريشا أيضا حتى بلغ بواط من ناحية رَضْوِي، ورضوي: جبل مشهور عظيم بينبع، ورجع ولم يلق أحدا⁶، وكان في مائتي راكب ولواؤه مع سعد بن أبي وقاص، وكان مقصده أن يعترض لعير قريش، وكان فيه أمية بن خلف ومائة رجل وألفان وخمسمائة بعير، قال ابن هشام: واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، وقال الواقدي سعد بن معاذ⁷، وقال ابن عبد البر في كتاب الدرر في المغازي والسير ثم أقام بالمدينة إلى شهر ربيع الآخر من السنة الثانية للهجرة،

¹- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 327

²- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 326

³- ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 362

⁴- صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة العشيبة أو العسيرة، رقم: 3949

⁵- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 328

⁶- المصدر نفسه، نفس الجزء، ص 327

⁷- ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 361

ثم خرج فيها واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بواط من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً.

5/ غزوة بدر الأولى: قال ابن إسحاق: ولما رجع إلى المدينة يعني من غزوة بواط، لم يبق إلا ليالي حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في طلبه حتى بلغ سقران من ناحية بدر، فقاتله كرز بن جابر، وهذه هي بدر الأولى¹.

11/ السرايا قبل غزوة بدر

1/ سرية حمزة بن عبد المطلب: قال ابن إسحاق: وبعض الناس يقول: كانت راية حمزة أول راية عقدتها له رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحد من المسلمين، قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيه من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعا للفريقين جميعاً، فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال²، قالوا: وكان حامل رايته أبو مرثد حليف حمزة، وذلك في شهر رمضان من السنة الأولى، وكانوا ليعترضوا غير قريش، فلقوا أبا جهل في جمع كثير³.

2/ سرية عبيدة بن الحارث: قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي، في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المروة فلقي بها جمعا عظيماً من قريش، عليهم عكرمة بن أبي جهل، فلم يكن بينهم قتال، ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية، وفرّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراي حليف بني زهرة، وعُتبة بن غزوان بن جابر المازني حليف بني نوفل بن عبد مناف، وكانا مسلمين، وكان بعث حمزة معاً، وقال الواقدي كانت سرية حمزة في رمضان وبعدها سرية عبيدة في شوال⁴.

3/ سرية عبد الله بن جحش: في سرية عبد الله بن جحش، ورد أنه ومن معه لقوا ناساً من قريش راجعين بتجارة من الشام فقاتلوهم، واتفق وقوع ذلك في رجب، فقتلوا منهم وأسروا وأخذوا الذي كان معهم، وكان أول قتل وقع في

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص327

² - ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص359

³ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج7، ص327

⁴ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص356-357، 359

الإسلام وأول مال غنم، ومن قتل عبد الله بن الحضرمي أخو عمرو بن الحضرمي الذي حرض به أبو جهل قريشا على القتال ببدر¹.

111/غزوة بدر الكبرى

1/تعريف بمكان المعركة وسببها

***تعريف بمكان المعركة:** بدر هي قرية مشهورة نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة كان نزلها، ويقال بدر بن الحارث، ويقال بدر اسم البئر التي بها، سميت بذلك لاستدارتها أو لصفاء مائها فكان البدر يرى فيها، وحكى الواقدي إنكار ذلك كله عن غير واحد من شيوخ بني غفار، وإنما هي مأوانا ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له بدر، وإنما هو علم عليها كغيرها من البلاد².

***سبب الغزوة:** قال ابن إسحاق: في سبب غزوة بدر ثم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، سمع بأبي سفيان صخر بن حرب، مقبلا من الشام في عير لقريش عظيمة فيها أموال وتجارة، وفيها ثلاثون رجلا أو أربعون، منهم مخزومة بن نوفل وعمرو بن العاص³، فندب النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار فبلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم استنفر أصحابه بقصدهم، فأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى قريش بمكة يخرضهم على المجيء لحفظ أموالهم ويجذرهم المسلمين فاستنفرهم ضمضم، فخرجوا في ألف راكب ومعهم مائة فرس، واشتد حذر أبي سفيان فأخذ طريق الساحل وجد في السير حتى فات المسلمين، فلما أمن أرسل إلى من يلقي قريشا يأمرهم بالرجوع، فامتنع أبو جهل من ذلك، فكان ما كان من وقعة بدر⁴.

2/تعداد الجيشين وعدتهم

***عدد جيش المسلمين:** روى الإمام أحمد عن ابن عباسٍ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرِ قَالَ نَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَنَيْفٌ وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ⁵، وفي حديث ابن عباس في مسند الإمام أحمد جعلهم أكثر من ثلاثة مائة، وفي أبي داود ضبطهم بثلاثمائة وخمسة عشر، روى أبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمَ بَدْرِ فِي ثَلَاثِ مِائَةٍ وَخَمْسَةِ عَشَرَ فَقَالَ

¹ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 327

² - المصدر نفسه، ج 7، ص 333

³ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 380

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 329

⁵ - مسند الإمام أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بالخطاب، رقم: 203

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حُقَاةٌ فَأَحْمِلْهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عُرَاةٌ فَأَكْسُهُمُ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ فَفَتَحَ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ فَأَنْقَلَبُوا حِينًا أَنْقَلَبُوا وَمَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ رَجَعَ بِجَمَلٍ أَوْ جَمَلَيْنِ وَاکْتَسَمُوا وَشَبِعُوا¹، ولم يخرجوا على أتم الاستعداد، لأنهم خرجوا من أجل العير وليس القتال، كانوا مشاة إلا القليل منهم، وكانوا عارين من السلاح وكان المشركون على العكس من ذلك، والسبب في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ندب الناس إلى تلقي أبي سفيان لأخذ ما معه من أموال قريش، وكان من معه قليلا فلم يظن أكثر الأنصار أنه يقع قتال فلم يجز معه منهم إلا القليل، ولم يأخذوا أهبة الاستعداد كما ينبغي، بخلاف المشركين فإنهم خرجوا مستعدين ذابين عن أموالهم².

***عدد جيش المشركين من قريش:** روى الإمام أحمد عن ابن عباسٍ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ نَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتَيْفٌ وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ³، وكان في النفي أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما من رؤساء قريش، خرجوا مستعدين ذابين عن أموالهم في كامل عددهم وعدتهم وسلاحهم، معهم سبعمائة بعير ومائة فرس⁴.

3/اختيار النبي-صلى الله عليه وسلم-مكان المعركة والاستعداد المادي والمعنوي لها

***اختيار مكان المعركة:** قال ابن إسحاق: وخرج رسول الله-صلى الله عليه وسلم-في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه، واستمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس، وردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير⁵، وسلك طريقا معتدلة، وسمع خبر قريش ومسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، فتكلم أبو بكر ثم عمر، ثم المقداد بن عمرو⁶، ولكن النبي-صلى الله عليه وسلم-بقي يردد أشيروا علي أيها الناس، حتى تكلم سعد بن معاذ⁷، فقال: لو سرت بنا حتى تبلغ برك الغماد لسرنا معك⁸، فانطلقوا حتى نزلوا بدرا، وأصابوا راوية لقريش بها فسألوهم خبر قريش فأخبروهم⁹، ونزلوا أدنى ماء بدر، فأشار الحباب بن المنذر على النبي-صلى الله عليه وسلم-

¹ - سنن أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في نفل السرية تخرج من العسكر، رقم: 2367

² - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 333

³ - مسند الإمام أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بالخطاب، رقم: 203

⁴ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 340

⁵ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج 2، ص 387-388

⁶ - راجع ما قاله المقداد بن عمرو للنبي-صلى الله عليه وسلم- لما بلغ موضع الصفراء واستشارهم، في ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري،

ج 7، ص 335-336

⁷ - ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص 390-392

⁸ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 336

⁹ - المصدر نفسه، نفس الجزء، ص 394، 397

وسلم- فقال: امض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه، ثم نبي عليه حوضاً فتملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقد أشرت بالرأي¹.

لقد اعتمد النبي-صلى الله عليه وسلم- على مشورة أصحابه، في مسيره إلى بدر عدة مرات، أحياناً يطلبها وأحياناً يبادرون بها، فكان يشركهم في الرأي ويعمل بما يشيرون به، فكان النصر نتيجة لمجموع الآراء التي تبادلها الصحابة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان كثير المشورة لهم في كثير من الأمر أو جلها.

***تسوية الصفوف ليلاً:** روى الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف قال: عبأنا النبي صلى الله عليه وسلم ببدر ليلاً²، قال في النهاية: أي رتبهم في مواضعهم وهياتهم للحرب ببدر ليلاً، يعني سوى الصفوف وأقام كلا منا مقاما يصلح له في الليل ليكون على طبقه ووقفه في النهار³، ووضع النبي -صلى الله عليه وسلم-، خطة للقتال جديدة ومبتكرة، تتماشى مع المكان الذي اختاره لندار فيه المعركة، وفاجأ العدو بهذه الخطة، إذ كانوا يقاتلون وفق خطة الكر والفر وليس الصفوف.

***رفع معنويات جيش المسلمين:** روى مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا مع عمر بن الخطاب في مكة والمدينة... ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرِ بِالْأَمْسِ يَقُولُ هَذَا مَصْرَعٌ فَلَانَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ فَقَالَ عُمَرُ فَوَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁴، وأسلوب التبشير بالنصر، وتحديد مصارع المشركين في ميدان المعركة، فيه رفع من معنويات المقاتلين، وجعلهم يقاتلون موقنين النصر، فكان لهم ذلك.

***الإحاح النبي-صلى الله عليه وسلم في الدعاء يوم بدر:** لقد نقل القرآن الكريم تصويراً دقيقاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يلجأ إلى ربه متضرعاً في الإحاح شديد، طلباً للعون والنصر، وذلك في قول الله تعالى [إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]⁵، كما روت كتب السنة من جهتها كيف كان اجتهاد النبي-صلى الله عليه وسلم- في الدعاء، وثقته بأن النصر من عنده، روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرِ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعَبِّدْ فِي الْأَرْضِ فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَا دَامَ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقَبْلَةَ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَن مَنْكِبَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاؤَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ ورائِهِ وَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنَجِّزُ لَكَ

¹ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص402

² - سنن الترمذي: كتاب: الجهاد عن رسول الله، باب: ما جاء في الصف والتعبئة عند القتال، رقم: 1600

³ - المباركفوري أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية - بيروت، [ج5 / 265]

⁴ - صحيح مسلم: كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم: 5120

⁵ - سورة الأنفال، الآيات: 9-12

مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ فَاَمَدَهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ¹.

4/ تأييد الله تعالى المسلمين يوم بدر

***تثبيتهم بالنوم والغيث:** ورد في القرآن تثبيت قلوب المسلمين بالنوم ليذهب عنهم الخوف، وتثبيت أقدامهم في الأرض بالمطر، بالإضافة إلى تثبيت الملائكة، قال تعالى: [إِذْ يُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ]²، وهذا التأييد من الله كان بجنود رأوها أو لم يروها، أما النصر في النهاية فكله من الله.

***تأييدهم بالملائكة:** ورد تأييد المسلمين يوم بدر في القرآن والسنة، أما في القرآن فورد في قوله تعالى [إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]³، أما في السنة فقد جاء في صحيح مسلم عن ابن عباسٍ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَهُ بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ أَقْدِمْ حَيُّوْمُ فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسْرُوا سَبْعِينَ⁴، وروى ابن أبي حاتم بسند صحيح عن الشعبي (أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين)، فأنزل الله تعالى: (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ)، قال يمد كرز المشركين ولم يمد المسلمين بالخمسة، ومن طريق سعيد عن قتادة قال (أمد الله المسلمين بخمسة آلاف من الملائكة)، وعن الربيع بن أنس قال (أمد الله المسلمين يوم بدر بألف، ثم زادهم فصاروا ثلاثة آلاف ثم زادهم فصاروا خمسة آلاف) وكأنه جمع بذلك بين آل عمران والأنفال⁵.

5/ خطة النبي -ص- في المعركة وبيدائها

¹ - صحيح مسلم: كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رقم: 3309

² - سورة الأنفال، الآيات: 11-12

³ - سورة الأنفال، الآيات: 9-10

⁴ - صحيح مسلم: كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رقم: 3309

⁵ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 333

* /خطبة النبي -ص- للقتال في المعركة: روى البخاري عن أبي أسيد رضي الله عنه قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر إذا أكتبوكم فآرؤموهم واستبقوا نبلكم¹، إذا أكتبوكم والكثب القرب، فالمعنى إذا دنوا منكم وقد استشكل بأن الذي يليق بالدنو المطاعنة بالرمح والمضاربة بالسيف وأما الذي يليق برمي النبل فالبعد، وعند بن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن لا يحملوا على المشركين حتى يأمرهم وقال إذا أكتبوكم فانضحوهم عنكم بالنبل²، وفي رواية ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم فظهر أن معنى الحديث الأمر بترك الرمي والقتال حتى يقربوا لأنهم إذا رموهم على بعد قد لا تصل إليهم وتذهب في غير منفعة وإلى ذلك الإشارة بقوله واستبقوا نبلكم وعرف بقوله ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم أن المراد بالقرب المطلوب في الرمي قرب نسبي بحيث تنالهم سهام لأقرب قريب بحيث يلتحمون معهم³.

* /بداية المعركة بدأت المعركة بالمبارزة بين ثلاثة من المسلمين من بني عبد مناف اثنين من بني هاشم علي وحمزة أي بن عبد المطلب بن هاشم، وواحد من بني المطلب عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وثلاثة من المشركين من بني عبد شمس بن عبد مناف، شيبه بن ربيعة بن عبد شمس وعتبة هو أخوه، والوليد بن عتبة ولده، وذكر بن إسحاق أن عبيدة بن الحارث وعتبة بن ربيعة كانا أسن القوم فبرز عبيدة لعتبة، وحمزة لشيبه، وعلي للوليد، وعند موسى بن عقبة برز حمزة لعتبة، وعبيدة لشيبه، وعلي للوليد، فقتل علي الوليد وقتل حمزة الذي بارزه، واختلف عبيدة ومن بارزه بضريرتين فوقعت الضربة في ركة عبيدة فمات منها لما رجعوا بالصفراء، ومال حمزة وعلي إلى الذي بارز عبيدة فأعاناه على قتله⁴.

6/ نتائج المعركة:

* /خسائر المشركين من قريش

- /عدد القتلى والأسرى: روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لَمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ... فَلَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ وَالتَّقُوا فَهَزَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْرِكِينَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا⁵، وكان زعيم المشركين وفرعون هذه الأمة أبو جهل لعنه الله قتل في تسعة وستين رجلا من المشركين، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبيرا فوفى ذلك سبعين قتيلا.

¹ - كتاب المغازي، باب: غزوة بدر، رقم: 3984

² - ابن حجر: فتح الباري، [ج 7 / 357]

³ - ابن حجر: فتح الباري، دار المعرفة-بيروت، 1379هـ، [ج 6 / 92]

⁴ - ابن حجر: فتح الباري، [ج 7 / 337]

⁵ - مسند الإمام أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بالخطاب، رقم: 203

-/دفن قلى المشركين في بدر: روى مسلم عن أنس بن مالك قال كُنَّا مَعَ عُمَرَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ... ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ فَقَالَ عُمَرُ فَوَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأُوا الْخُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَجَعَلُوا فِي بَيْتٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ فَقَالَ يَا فُلَانُ يَا فُلَانُ وَيَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا قَالَ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعِ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا¹.

*/خسائر المسلمين وغنائمهم يوم بدر

-/الخسائر: قتل من المسلمين يود بدر اثنتا عشر شهيدا، ذكر أهل السير أسماءهم بالتفصيل².

-/غنائم المسلمين من الأموال: روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم بدر في ثلاث مائة وخمسة عشر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إنهم حفاة فاحملهم اللهم إنهم غزاة فاكسهم اللهم إنهم جياغ فأشبعهم ففتح الله له يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا³.

-/أسرى المشركين يوم بدر

./موقف النبي-صلى الله عليه وسلم- من أسرى بدر: روى البخاري: عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أسارى بدر لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء التتى لتركتهم له⁴، فمراد النبي-صلى الله عليه وسلم ليتركهم له بغير فداء، ومات المطعم بن عدي قبل وقعة بدر⁵.

./موقف الصحابة من الأسرى: روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لما كان يوم بدر... فهزم الله عز وجل المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون رجلا فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعليا وعمر رضي الله عنهم فقال أبو بكر رضي الله عنه يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى الله أن يهديهم فيكونون لنا عضدا فقال رسول

¹- صحيح مسلم: كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم: 5120

²- ابن خلدون السيرة النبوية، ص 122-123

³- سنن أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في نفل السرية تخرج من العسكر، رقم: 2367

⁴- صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة بدرا، رقم: 3720

⁵- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 7، ص 376

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قَالَ قُلْتُ وَاللَّهِ مَا أَرَى مَا رَأَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلِكَيْ أَرَى أَنْ تُمَكِّنِي مِنْ فُلَانٍ قَرِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمْكِّنَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمْكِّنَ حَمْرَةَ مِنْ فُلَانٍ أَحِيَهُ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَتْ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَّةٌ لِلْمُشْرِكِينَ هَؤُلَاءِ صَنَادِيدُهُمْ وَأَتَمَّتْهُمْ وَقَادَتْهُمْ فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَ يَهُوَ مَا قُلْتُ فَأَخَذَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ فَلَمَّا أَنْ كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَدَوْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِذَا هُمَا يَبْكِيَانِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءَ بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنَ الْفِدَاءِ لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ لِشَجَرَةِ قَرِيبَةٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْنَحَ فِي الْأَرْضِ إِلَى قَوْلِهِ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ مِنَ الْفِدَاءِ ثُمَّ أَجَلَ لَهُمُ الْعَنَائِمُ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عُوِقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخَذِهِمُ الْفِدَاءَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وَفَرَّ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُسِرَتْ رِبَاعِيئُهُ وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا الْآيَةَ بِأَخَذِكُمُ الْفِدَاءِ¹.

***/اختلاف المسلمين في تقسيم الغنائم:** انقسم المسلمون إلى ثلاث أقسام كما جاء في مسند الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال خرجنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا فَالْتَقَى النَّاسُ فَهَزَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ فَأَكْبَتُ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَحْوُونَهِ وَيَجْمَعُونَهُ وَأَخَذَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُصِيبُ الْعَدُوَّ مِنْهُ غِرَّةٌ حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَفَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْعَنَائِمَ نَحْنُ حَوِينَاهَا وَجَمَعْنَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ نَقِينَا عَنْهَا الْعَدُوَّ وَهَزَمْنَاهُمْ وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَفُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَفْنَا أَنْ يُصِيبَ الْعَدُوَّ مِنْهُ غِرَّةٌ وَاشْتَعَلْنَا بِهِ فَتَزَلَّتْ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْعَالِ قُلْ الْأَنْعَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولُ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَوَاقٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ²، وفي رواية أخرى انقسموا قسمين عند أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ مِنَ النَّقْلِ كَذَا وَكَذَا قَالَ فَتَقَدَّمَ الْفَتِيَانُ وَلَزِمَ الْمَشِيخَةَ الرَّايَاتِ فَلَمْ يَبْرَحُوهَا فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالَ الْمَشِيخَةُ كُنَّا رِدَاءَ لَكُمْ لَوْ أَنهَزْتُمْ لَفَتْنُمْ إِلَيْنَا فَلَا تَذْهَبُوا بِالْمَعْنَمِ وَنَبْقَى فَأَبَى الْفَتِيَانُ وَقَالُوا جَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ

¹ - مسند الإمام أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بالخطاب، رقم: 203

² - مسند الإمام أحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث عبادة بن الصامت، رقم: 21699

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِلَى قَوْلِهِ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُِونَ¹.

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي قال سألتُ عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعها الله من أيدينا وجعلها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بؤاء يقول على السواء².

فكانت هذه أول تجربة للمسلمين مع الغنائم، فبان ضعفهم وانقسامهم من أجلها، بعد أن توحدوا في غيرها، فأدبهم الله تعالى، ورد الغنائم إليه وإلى رسوله يقسمها كيف يشاء، وأمرهم بأن يصلحوا ما شجر بينهم بسببها.

وقد بين الله تعالى ميل المؤمنين إلى الأموال قبل المعركة وأنزل فيهم: وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، هذه الآية نزلت في قصة بدر بلا خلاف بل جميع سورة الأنفال أو معظمها نزلت في قصة بدر، والمراد بالطائفتين العير والنفير فكان في العير أبو سفيان ومن معه كعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وما معه من الأموال وكان في النفير أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما من رؤساء قريش مستعدين بالسلاح متأهبين للقتال وكان ميل المسلمين إلى حصول العير لهم وهو المراد بقوله وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم والمراد بذات الشوكة الطائفة التي فيها السلاح³.

وذلك رغم أفضلية كل من شهد بدر كما عقد البخاري في صحيحه (باب فضل من شهد بدرًا)، أي مع النبي صلى الله عليه و سلم من المسلمين مقاتلا للمشركين، وكأن المراد بيان أفضليتهم لا مطلق فضلهم، واستدل عليه بحديث حاطب بن أبي بلتعة فقال فيه أليس من أهل بدر فقال لعلى الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم فدمعت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم⁴، والمراد منه هنا الاستدلال على فضل أهل بدر بقوله صلى الله عليه وسلم المذكور وهي بشارة عظيمة لم تقع لغيرهم، وعند أحمد بإسناد على شرط مسلم من حديث جابر مرفوعا لن يدخل النار أحد شهد بدرًا، تأهلوا لأن يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت، أي كل ما عملتموه بعد هذه الواقعة من أي عمل كان فهو مغفور وقيل إن المراد ذنوبهم تقع إذا وقعت مغفورة⁵.

¹- سنن أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في النفل، رقم: 2360

²- مسند الإمام أحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث عبادة بن الصامت، رقم: 21685

³- ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، 1379، [ج 7/ 286]

⁴- كتاب المغازي، باب: فضل من شهد بدرًا، رقم: 3983

⁵- ابن حجر: فتح الباري، [ج 7/ 356]